(كارادوسوّ). وحاول الكلب مستميتاً تمزيق الشاب ارباً ارباً لو لم تأخذ الشرطة الرحمة به. وقد زاد شعورهم بالرأفة نحوه أنه كان يدافع عن نفسه بكلّ جراءة وذلاقة. وأظهر دونينوّ عجزاً عن الإتيان بادلة إثبات كافية ضدّه. زد على هذا إن أحد عرفاء الشرطة كان من جنوا وعلى معرفةٍ بأبي الشاب. فبين حادث الكلب وبين ماذكرته بدا وكأن السلطة لن تتردد في إخلاء سبيله. ما ان عدوت في أثر الكلب وصرت بينهم حتى هاج هائجه مرة أخرى وهجم على الشاب غير عابيء بالسيوف والعصي. فهددني الشّرط بأنهم سيعمدون الى قتله إن لم أبعده عن الشاب. فأمسكت به وعقرته متشبثاً جهد إمكاني وفي تلك اللحظة وأثناء ما كان الشاب يجرّ معطفه - سقطت من القباء لفافات ورقٍ. فشخصها (دونينو) قائلا إنها تعود له ثم وقعت إنظاري على خاتم صغير يعود لي فصرخت:

- هذا هو اللصّ الذي سطا على دكاني وسرقني، ولهذا عرفه كلبي.

أطلقت الكلب من عقاله وفيم هو يهم بالوثوب بدأ الشاب يتوسل ويطلب الرأفة قائلاً إنه سيعيد اليّ كل ما أخذه منيّ. فأمسكت بالكلب بينما راح يعيد الذهب والفضّة والخواتم الصغيرة التي تعود لي فضلاً عن خمسة وعشرين كراوناً. ثم عاد يطلب الرحمة. قلت إن أراد الرحمة فعليه أن يتوجه بصلاته الى الله لأني لن أساعده ولن أقف في سبيله.

عدت الى داري مستأنفاً أعمالي. وبعد بضعة أيام شُنِق (چيزاري ماكاروني) مزيف العملة على الضفة أيام دار الضرب وحُكم على شريكه بالتجديف في السفن[١٣٦] وشنّق اللصّ الجنويّ في ساحة (كامپودي ڤيوري). وخلصت سمعتي وزاد إعتباري بشكل لم أحلم به.

وكنت أشارف على الإنتهاء من الاشغال التي كلفني بها الپاپا. وقع فيضان عظيم غمر روما كلها بالماء عندما أعلنت دقات الساعة الثانية والعشرين (قبل الغروب بساعتين) وأخذ الليل يرخي سدوله وراح منسوب المياه يرتفع بإطراد وبسرعة. وبقيت لأرى ما سيحدث. كانت واجهتا منزلي ودكاني تطلان على الضفة. وظهرُ المنزل الذي يواجه (مونتي جيوردانو Monte Gierdano) أعلى بعدة أقدام من الواجهة. كان أول همّي هو سلامتي، يليها شرفي وسمعتي. فبادرت إلى حشو جيوبي بكل الأحجار الكريمة، وتركت حلية الپاپا عند صنّاعي. ثم علوت الشباك الخلفي للدار حافي القدمين وقفزت منه وأنا أخوض في الماء حتى بلغتُ (مونتي كافاللو Monte Cavalle) وهناك لقيتُ (جيوڤاني گادي) الموظف في البلاط الپاپوي ومعه الرسام البندقي (باستيانو). كان جيوڤاني شديد التعلّق بي وكنت أعدّه بمثابة أخٍ لي. فلما كان اللقاء بيننا قمت بإيداع كلّ الجواهر عنده وطلبت منه المحافظة عليها.

بعد أيام قلائل هبط مستوى الماء وزال الخطر وصار بإمكاني العودة الى الدكان وإكمال الحلية. شاكراً الله ومجهودي فقد بلغت بها قمة النجاح وقال عنها كلّ من رآها إنها قطعة فنيّة رائعة لم ير مثلها في روما. ولم يجد الپاپا العبارات الكافية للثناء عليّ عندما حملتها إليه. وقال:

- لو كنت من الملوك الأغنياء. لأقطعتُ عزيزي بنڤنوتو من الأرض قدر ما يمتّد إليه بصره. إلا أننا في

(١٣٦) عقوبة قاسية لم يبطل العمل بها الى مفتتح القرن التاسع عشر. بموجبها يؤخذ المحكوم الى سفينة تعود للسلطة وتقيد رجلاه في الموضع الذي خصص للتجذيف مع سائر المحكومين لايزاوله إلاّ لقضاء حاجاته الجسمية.

هذه الأيام أمراء فقراء مفلسون. مع هذا فسنضمن له الحصول على الخبز الذي يسدّ حاجته المحدودة.

تركته يمضي في الحديث على رسله حتىّ يفرغ ما في جعبته منه. ولما كان منصباً من مناصب حملة الصوالج شاغراً فقد سألته هل يمكنه تعييني فيه؟ فأجاب انه إنتوى إكرامي بشيء أهم من هذا بكثير. فأجبت قداسته: لعله ينعم عليَّ في الوقت الحاضر بما طلبته كشيء أشبه بضمان.

فأطلق ضحكة عالية وقال إنه لشديد الرغبة في تحقيق مطلبي هذا لكنه لايريدني في وظيفة لها واجباتها الفعلية. وإن عليّ التفاهم مع حملة الصوالج الآخرين ليتوزعوا واجباتي. وفي الوقت نفسه مَنَحهم ماكانوا قد طلبوه منه وهو تمكينهم من أستحصال أجورهم المتأخرة قضائياً. وصار يدخلني من هذه الوظيفة زهاء مائتي كراون سنوياً.

واصلت خدمة البابا وعملت له أشياء صغيرة في أوقات مختلفة. ثم طلب منيّ يوماً أن أهيء له نموذجاً لكأس القربان كثير الزخارف. فقمت بعمل نموذج وتصميم تخطيطي. الأول منهما صنعته من الخشب والشمع وفي مكان العقدة صممت ثلاث مجسّمات تامة البروز رمزتُ بها. لفضائل الرجاء والإيمان والمحبة. ولإحلال الموازنة والمساوقة فيه جعلت في القاعدة ثلاث دوائر صغيرة في داخلها مشاهد بنصف بروزّ: مشهد يمثل ميلاد يسوع المسيح، ومشهد يمثل قيامته وبعثه، ومشهد يمثل بطرس الرسول مصلوباً ورأسه في الأسفل[١٣٧] إذ كانت هذه وصية البابا.

وكان قداسته لايفتأ يلحُّ في رؤيته وأنا أشتغل به. وقد بدا لي في حينه أن قداسته نسي تحقيق ما أنعم عليَّ به قبلاً. ولما كانت قد شغرت وظيفة في دائرة (البيومبو Piombo)[١٣٨] فقد طلبتها منه ذات مساء. فوجدته قد غسل ذاكرته من كل المديح والحماسة التي أظهرها لي عندما إنتهيت من حليته. إذ أجابني قائلاً:

– وظيفة البيْومبو تعود على متقلدها بأكثر من ثمانمائة كروان سنوياً. فإن عينتك فيها فلن تعمل شيئاً سوى حَكّ بطنك طول اليوم. وبذلك تفقد مهارتك العجيبة وتلومني شخصيّاً.

فأجبته قائلاً:

– إن اصائل القطط تحسن قنص الفيران وهي سمينة أكثر مما تحسنهُ وهي جائعة. وكذلك الصناع الأمناء فإنهم يكونون أكثر إجادةً واتقانا لأعمالهم عندما يوسع لهم في الرزق. وليتذكر قداستك أن الأمراء الذين يرفهون عن الفنانين ويفسحون لهم سبل العيش الهنيء إنما يسقون جذور العبقرية التي تولد عادةً ضعيفة ومريضة. وليكن قداستك على علم أيضاً بأني ماطلبت هذه الوظيفة بفكرة الظفر بها فأنا قانع بالمنصب المتواضع منصب حامل الصولجان وأما الأخرى فأنا أراها في أحلام

(١٣٧) عندما حُكم على الرسول بطرس بالصلب في روما، أبى أن يُصلب ورأسه في الأعلى قائلاً إنه لايستحق أن يموت بالشكل الذي مات سيده المسيح.

(١٣٨) دائرة في بلاط البابا فيها تختم البراءات البابَاوية بأختام رصاصية (Piombo) ويتقلدها مدنيون أحياناً. ومن أشهر من عين فيها المهندس المعماري العظيم برامانتي. وسباستيانو الذي ورد ذكره هنا. ولم يكن هذا الآخر ليستحقها إذ ما أن نالها حتى قعد ولم ينجز بعدها أعمالاً تذكر.

اليقظة فحسب.[١٣٩]

ثم أنهيت كلامي بقولي:

- ومادام قداستك لاينوي إسنادها اليّ فإنك لتحسن صنعاً إن أنعمت بها على فنان جديرٍ بها لا على دعيّ خامل لايفعل شيئاً غير حَكّ بطنه كما ذكر قداستك.

وأطلقت قذيفة الوداع فذكّرته بأن يحتذي حذو سلفه الفاضل الپاپا يوليوس الذي أسند مثل هذه الوظيفة الى المهندس المعماري الألمعي (برامانتي Bramanti). ثم إنحنيت وإنصرفت وأنا أتقدّ غيظاً.

بعد إنصرافي تقدم منه (باستيانو ڤينيزيانو) الرسام وقال له:

- أيها الأب الأقدس، لماذا لاتسند المنصب الى من أوقف كل وقته على فنّه؟ لقد تفرغتُ بكلّيتي الى عملي وإني لأرجو منك أن تحكم. إن كنتُ جديراً به.

أجاب الپاپا:

- هذا الشيطان ينڤنوتو! إنه لايتحمّل أيّ شخصٍ يرفض له طلباً. ولقد كنت في الواقع أميل إلى تقليده أياها. لكن ليس من الأدب أن يظهر المرء صلافتهُ أمام الپاپا لذلك فإن رأيي لم يستقر على ما سأفعله.

وأسرع أسقف (ڤازونا) يهتبل الفرصة مزكياً (باستيانو) ومتوسطاً له فقال:

- أيها الأب الأقدس. إن (بنڤنوتو) شاب مندفع وهو يبدو والسيف في عاتقه أفضل مما يبدو مرتدياً مسوح الرهبان الذي يتحتم عليه إرتداؤها إذا ما أسندت إليه وظيفة في (الپومبو)، إلا فلتتكرم بمنح هذا المنصب للرجل الموهوب باستيانو وسيكون بمقدورك في مناسبة أخرى أن تجد لبنڤنوتو وظيفة حسنة قد تكون أكثر لياقة به.

فألتفت الپاپا الى النبيل (بارتولومو ڤالوري B. Valori)[١٤٠] وقال له:

- إن لقيت بنڤنوتو. فبلغه عني بأنه هو الذي أعطى المنصب للرسام باستيانو. إلا انه يمكنه أن يعتمد على الفوز بأوّل منصب مناسب يخلو. وفي أثناء ذلك عليه ان يحسن عمله وينجز ما يشتغل به لي.

في مساء اليوم التالي بعد حلول الظلام بساعتين لقيت السيد (بارتولوموّ) في منطقةٍ قرب دار الضرب وهو في عجلة من أمره على أثر إستدعاء الپاپا له وكان يتقدمه إثنان من حملة المشاعل لكنه توقف عندما حييتُه وأشار على بالدنوّ. ثم أبلغني بغاية اللطف والحرارة ما أمره الپاپا بإبلاغي. فأجبت اني سأنجز العمل بأكثر دقة وتفرغاً من أي عمل قمت به قبلاً ولكن ذلك كله سيكون بروح خالية من أقل أملٍ بالحصول على أي شيء من الپاپا. فأنبّني على قولي هذا واردف قائلاً ليس هذا

(١٣٩)في جواب چلليني تعريض لايخفى بكلام الپاپا. فمن عادة القطط عندما تكون عاطلة متخمة البطن أن تحك بطنها بأظافرها وقتاً ملياً.

(١٤٠) فلورنسيّ. ظل مخلصاً لآل مديتشي حتى شبع من غدرهم. فانضّم الى (فيليپو - ستروزي) وساهم في مؤامرته ضدهم. فقطع رأسه في ١٥٣٧.

بالأسلوب الذي يُرد به على وعود البابا. فقلت: لعلمي بأني لن أظفر بشيء، فلأكونن مجنوناً إن إعتمدت على ما قال، أو أجبت بغير هذا الجواب. ثم تركته وإنصرفت لشأني.

لابُدّ أن (بارتولومو) نقل خطبتي الصغيرة الغاضبة. وربما زاد فيها شيئاً من عنده لأن البابا لم يستدعني إليه طوال شهرين أو أكثر. ولم يكن لدي طول هذه المدة أقل رغبةٍ للذهاب إليه مختاراً. إلاّ أنه كان يتحرق لإلقاء نظرة على الكأس التي أقوم بعملها له ولذلك طلب من السيّد النبيل (روبرتو پوچي Roberto Pucci)[١٤١] أن يتحرى ويستعلم عما يجري. إعتاد هذا السيد الماجد زيارتي يومياً وكنّا دائماً على صفاء ومودة. وكان الزمن يقترب لموعد سفر البابا الى بولونيا[١٤٢] ولما أيقن أخيراً بأني لن أقصده من تلقاء نفسي، جعلني أفهم عن طريق السيد (روبرتو) بأنه يريدني ومعي الكأس ليرى التقدم الذي جرى في العمل به.

فأخذته إليه ووجد أن أهمّ قسم فيه قد تمّ. ثم رجوت منه أن يدفع لي خمسمائة كروان منها كأجور ومنها لأني كنت في حاجة ماسة الى ذهب لأكمل به الكأس. فلم تخرج من فمه غير هذه العبارة:

- عجّل به، أكمل العمل!

فإنصرفت وأنا أقول بأني سأكمله حَتماً إن زودني ببعض المال.

عندما سافر البابا الى (بولونيا) ترك الكردينال سالڤياتي نائباً پاپاوياً في روما وأمره أن يحتثني في العمل وما قاله له عني هو هذا:

- بنڤنوتو قليل التقدير لمواهبه، وهو أقل تقديراً لنا، فاحرص على متابعة عمله في الكأس وأجعله يعكف عليه ليكون كاملاً عند عودتي.

فلم يكن من الكردينال البهيمة إلاّ وأن أرسل بعد ثمانية أيام من رحيل البابا يستدعيني مع الكأس. فقصدته بدون الكأس. وما أن وقع نظره عليَّ حتى قال:

- أين لحمك المَفروم ذاك، هل كُمل طبخهُ؟

أجبت:

- سيدي الجزيل الإحترام. اللحم لم يكمل طبخه ولن يكمل حتى أزوّد ببعض الخضراوات أضعها فيه.

كان هذا الكردينال أشبه بالحمار منه بالبشر. وقد زاد حيوانيّةً عندما وعى كلامي فإنفجرت كوامن غيظه وصرخ بي:

- لأبعثنّ بك الى السفن العقابية. وعندها ربّما ستتكرم وتنجز العمل.

وهنا لم أر مناصاً من النزول الى مستواه الحيواني فأجبته:

(١٤١) من أشياع آل مديتشي لكنه كان أكثر إخلاصاً لهم من بارتولومو ڤالوري. وقد حاول كثيراً إقناع البابا بالعدول عن محاصرة فلورنسا.

(١٤٢) القصد من رحلته هو الإجتماع بالإمبراطور شارل الخامس للمداولة معه في إقامة حلف ضدّ الدولة العثمانية ولحضور مجمع ديني هناك. وبولونيا مدينة كبيرة تبعد عن روما زهاء ٤٠٠ كيلومتراً الى الشمال وعلى القاري أن لايخلط بينها وبين بلاد (پولندا).

– عندما أرتكب جريمة تستحق الحكم عليّ بالتجذيف في السفن فبإمكانك ياسيدي إرسالي إليها. إلاّ أن ما أقدمتُ عليه حتى الآن لايكوّن عندي سبباً للقلق من هذا. ودعني أضيف: بسببك أنت، لم تعد لدي نيّة في إكماله. فلا ترسل في طلبي مرة أخرى لأنك لن تراني إلاّ باللجوء الى القوة.

بعد هذا لجأ الكردينال (المهذّب) الى أسلوب الملاينة والمسايرة لحملي على مواصلة العمل في الكأس وحمله إليه ليراه. إلاّ إني كنت أردّ عليه بقولي: إذا رغب في أن يرى طبخة اللحم المفروم، فيجمل به أن يزوّدني بشيء من الخضراوات. كان هذا الردّ الوحيد الذي وجده عندي، فيئس بالأخير ونفض يده من الموضوع نهائياً.

لم يكد يستقرّ المقام بالپاپا بعد عودته من (بولونيا) حتى أرسل بطلبي وكان الكردينال قد كتب له بشرّ ما يمكنه الكتابة عنيّ، ولذلك كان قداسته في أقصى حالة من الإنفعال والعصبيّة وحدة المزاج.

في فترة غياب الپاپا أصيبت عيناي بالتهاب خطير حتى خيّل لي إني مشرف على الموت من فرط تباريح الألم. وكانت هذه العلّة الأساس في عدم إكمالي العمل بالكأس. في الواقع أن ما كابدتهُ جعلني أعتقد بأني سأعيش بقية عمري ضريراً، وحملني هذا الأعتقاد على الإستعداد بهذا النمط من الحياة الذي ينتظرني فحسبت كم أحتاج من المال لأستعين به على العيش إن وقع هذا. ولذلك كنت أحاول وأنا في طريقي الى الپاپا – التفكير في أسلوب إعتذار لنفسي عن تقاعسي في إنجاز كأسه الذهبي. وقررت أن أنتهز فرصة عرضه وقيامه بفحصه لأشرح له ما أصابني من الضرّ غير أني لم أحسن التقدير إذ ما أن وجدت نفسي أمامه حتى صاح بخشونة:

– ضع شغلك هنا! هل هو كامل؟

فأزحت عنه اللفائف فعاجلني بصرخة أخرى وقد فقد السيطرة على نفسه:

– أقول لك والله شاهد؛ ديدنك أن لاتهتمّ قلامة ظفر بأيّ إنسان ولولا مركزي وقدسية هذا الشيء لقذفت بك و به من النافذة.

وجدته وقد خرج عن طوره فكان هميّ الوحيد أن أنجو بنفسي منه. وبينما كان ماضياً في صولته. وضعت الكأس تحت معطفي وتمتمت لنفسي.

– ما من قوة في العالم ترغم رجلاً أعمى على عمل دقيق كهذا.

وعندما صاح وقد زاد إرتفاع صوته:

– تعال هنا! ماهذا الذي تقوله؟

نازعتني فكرتان: هل أثب وثبة جنونية الى الدرج؟ أم أبقى؟ ثم إتخذت قراري فركعتُ وصرخت (لأنه لم يكف هو نفسه عن الصياح):

– إن أسلمني مرضي الى العمى. فهل يترتب عليّ مواصلة العمل؟

فأجاب:

– كان بمقدورك أن تبصر طريقك جيداً الى هنا. لا أصدق حرفاً مما تقول.

لكني لاحظت إنخفاض صوته قليلاً فأسرعت أقول:

- لو سأل قداستك طبيبك الخاص فإنك ستجد الحقيقة عنده.

فقال:

- عندما أجد متسعاً من الوقت سأتحقق من مدى إنطباق إدعائك على واقع الأمور.

وجدت إنه صار الآن مستعداً للإصغاء اليّ فبدأت أقول:

- بالتأكيد أن السبب الوحيد لإبتلائي بالمرض هو الكردينال سالفياتي إذ ما أن ترك قداستك روما حتى إستدعاني وعندما جئته وصف شغلي باللحم المفروم وهددني بأنه سيرغمني على اقامه وأنا في سفينة العقاب. وأثرت فيّ معاملته الفظّة فهاجت أعصابي هياجاً شديداً وشعرت وكانّ وجهي يلتهب ناراً، وعيني تحرقاني الماً بحيث عجزت عن تلمس سبيلي الى منزلي. وبعدها بيومين نزل الماء الأبيض على كلتا عينيّ فلم أعد اتبين خيطاً من النور. ولذلك لم أكن قادراً على مد يدي الى عملٍ منذ رحيل قداستك.

ثم نهضت من ركعتي وإنصرفت. وأُبلغتُ فيما بعد أن البابا قال معقباً على القضية:

- بإمكان المرء أن ينقل المسؤولية الى عاتق آخر ولكن ليس بالإمكان نقل حكمتها وتعقلها معها. لم أطلب من الكردينال تعقيب الأمر بمثل هذه الصرامة والعنجهية. وإن كان إدعاء بنڤنوتو بمرض عينيه صحيحاً وهو ما سأتحققه من طبيبي، فعلينا أن نأسوه ونتألم له.

وكان في مجلس البابا وقتئذ رجل نبيل من كبار القوم تربطه بالبابا صداقة متينة فسأل عن هويتي. وقال شارحاً غرضه من هذا:

- أيها الأب الأقدس، إن السبب في سؤالي هو رؤيتي لك الآن وانت تنتقل من أقصى حالة غضبٍ عليه الى أقصى حالات العطف. فقل لي من هو؟ إن كان يستحق المساعدة بحثُ له بسرِ دواء يشفيه من مرضه.

فأجابه البابا:

- إنه أعظم أساتذة صنعته طراً. لايُعرف أحدٌ يباريه فيها. وفي المرة القادمة اذ نكون معاً سأريك شيئاً من أعماله الرائعة بل سيمكنك أن تشاهد الشخص بالذات في عين الوقت. وسيكون من دواعي سروري إن صنعت فيه معروفاً.

بعد هذا بثلاثة أيام إستدعاني البابا بعد أن فرغ من غدائه. فوصلت لأجد هذا النبيل معه بالذات. فأمر قداسته بإحضار حلية الزنار التي صنعتها له.

في الوقت الذي أخرجت الكأس وعرضته فأعجب به النبيل إعجاباً لاحَدّ له وقال إنه لم ير تحفة بمثل هذه الروعة.

ولما أحضرت الحلية ونظرها تضاعف إعجابه ثم أنه صعّدني بأنظاره ملياً وقال:

- إنه لأصغر سنّا بكثير من سعة وقوفه على أسرار هذا الفن. وإنه مازال على إستعداد للإستزادة والتحليق في أجوائه.

وسأل عن أسمي فقلت: بنڤنوتو. فقال:

– سترى الآن بأني (بنڤنوتو)[١٤٣] أيضاً. خذ نبتة سَوْسَن، أزهاراً وساقاً وجذوراً وأوراقاً. ضعها جميعاً في قدر واغلها على نارٍ بطيئة ثم أغسل عينيك بمائها عدة مرات يومياً وستبرأ بالتأكيد. لكن عليك أن تتطهرّ بتناول مسهّل قبل مباشرة العلاج.

وكان حديث الپاپا معي في غاية من اللطف. وخرجت وأنا أشعر بنوع من الرضا. في الواقع أن عدوى المرض إنتقلت اليّ وأعتقد إنها جاءتني من الخادم الصغيرة الجميلة التي كانت عندي وقت حادث السطو على دكاني. بقي داء السفلس كامناً لايظهر حوالي أربعة أشهر ثم إنطلق فجأة من مكمنه وإنتشر في كلّ أنحاء بدني ولم يظهره بطوره الإعتيادي المعروف فقد غطيّ جسمي بطفح أحمر كل واحدة منها بحجم الصولدي. ورفض الأطباء أن يشخصوه بالأفرنگي. مع اني شرحت السبب الذي يحملني على الإعتقاد بأنه هو بعينه. مهما يمكن فقد واصلت العلاج بحسب ما رسموه فلم يطرء تحسنّ على حالي بالمرّة. وبالأخير ورغم تحذير أحذق أطباء روما قررت تعاطي (خشبة الحياة Lignum Vitae)[١٤٤] وتعاطيت ذلك ببالغ مايتصور من العناية وباتباع أدقّ الحمية. وما مرت أيامٌ حتى بدأت أشعر بتحسن كبير. وبنهاية خمسين يوماً على مرضي برئت تماماً أو بتّ أكثر حيوية ونشاطاً من سمكة النهر. وفي سبيل التعويض عن العناء الكبير الذي كنت ارزح تحته. وبدنوّ فصل الشتاء – قررت أن أسرّي عن نفسي قليلاً بالخروج للصيد. وهذا ما أدّى الى تعرضي الى كل تقلّبات المناخ وخوض المستنقعات. فأُصبت بإنتكاسة وتردّت صحتي في أيام قلائل وساءت حالي أكثر من الأول بكثير فأسلمت نفسي للأطباء مجدداً. وصارت حالتي تزداد سوء بإزدياد علاجهم. ولّما ركبتني الحمّى قررت العودة الى تعاطي خشبة الحياة. وكان الأطباء ضدّ ذلك تماماً وقالوا لو اني عالجت نفسي بها مع وجود الحمّى فسأهلك في غضون أسبوع. وصممت على تجاهل رأيهم وبعد أن داومت متبعاً عين القواعد كالسابق. تركتني الحمّى بعد أربعة أيام من تناول هذا المنقوع المقدّس، ولم يبق لها أثر وشعرت بتحسن كبير. في الواقع ما إنقطعت قطّ عن تناول هذا المنقوع وأنا أتقدم حثيثاً في نماذج قطع الكأس. وفي خلال فترة الحمية أبدعت من النماذج والتصاميم مالم أوفق لمثله طوال أيام حياتي.

بنهاية خمسين يوماً شُفيت تماماً. وشرعت أتولى بناء صحتيّ بغاية الجدية والإهتمام. وشعرت بعد ذلك الصيام الطويل بتحرري تماماً من ذلك الوهن والسقم حتى لكأني ولدت من جديد. ومع كلّ المتعة التي كنت أجنيها من قيامي ببناء صحتي الغالية، أبيت أن أهمل صناعتي وأوقفت من وقتي غاية ما وسعني على العمل في الكأس وفي دار الضرب.

واتفق أن نصب الكردينال سالڤياتي الشديد الكره لي كما بيّنتُ – نائباً رسوليّاً في (پارما). وما حدث بالمناسبة هو أنه قبض في هذه المدينة على صائغ من أهل (ميلان) أسمه طوبيا Tobia بتهمة تزوير وبعد أن حكم عليه بالشنق وحرق جثته. تقدم بإسترحام بطلب التخفيف الى الكردينال

(١٤٣) جاء ذكر التورية المقصودة والمستمدة من معنى إسم بنڤنوتو في أكثر من موضع من المذكرات.

(١٤٤) أسم لاتيني يطلق على أي شجرة استوائية من فصيلة الـ: Guaiecum وهو من جملة الادوية النباتية التي كان يعتمد عليها الطب في ذلك الزمن.

بسبب كونه صانعاً حاذقاً جداً. فعمل الكردينال على منع العدالة من أن تأخذ مجراها وإيقاف تنفيذ الحكم وكتب للپاپا يقول لقد وقع بين يديه أعظم صائغ حاذق في الدنيا كلهّا. وإنه محكوم عليه بالشنق والحرق وتزييفه العملة، إلاّ انه انسان ساذج ومستقيم، إدعى بأنه أستشار معرّفه حول سك العملة فأجازه الكاهن بعمل ماحُكم عليه من جرّاه. وأضاف الكردينال الى كل هذا قوله: "لو إستقدمت هذا الرجل الى روما فإن قداستك سينجح في إرغام أنف بنڤنوتو وتحطيم غروره المفرط. وإني لواثق بأن عمل (طوبيا)، سيرضيك أكثر من عمل بنڤنوتو بكثير".

وبنتيجة هذا أرسل الپاپا بطلبه في الحال. وما وطئت رجله روما حتى جمعني وإياه في مجلسه وطلب منّا أن نصمم كلّ على حدة نموذجاً لحلية تزين قرن حيوان (اليونيكورن)[١٤٥] وهو أجمل ما في نوعه كان قد كلّف قداسته سبعة عَشر ألف دوقية من العملة الپاپوية. وكان قداسته يريد أن يقدمه هدية لملك فرنسا إلاّ انه رغب قبل هذا أن يزينة بالتهاويل والزخارف الذهبيّة.

بعد أن صنعنا نموذجينا حملناها الى الپاپا. كان الشكل الذي إختاره طوبيا على هيئة شمعدان. والقرن البديع مثبت في الرأس ليقوم مقام الشمعة والقاعدة تتألف من أربعة رووس صغيرة لليونيكورن. وهو بمجموعة خيال ساذج ومخالف للذوق السليم الى درجة مقرفة حتى لم أتمالك من الإبتسام في سرّي وأنا على مبعدة فلم تفت ابتسامتي الساخرة ملاحظة الپاپا وناداني حالاً وقال:

- ألا دعنا نشاهد ما عملتَ.

كان نموذجي مجردّ رأس اليونيكورن بالحجم الطبيعي المناسب للقرن صورته بأبدع شكل يخطر بالبال. ذلك لأني نقلت التصميم عن رأس حصان ورأس أيل وزينته بعُرف بديع وعدد آخر من الزخارف الأخرى. والنتيجة أنه ما أن شوهد حتى أسرع الجميع يقولون بتفوّق تصميمي. وكان في المجلس بعض ذوى الوجاهة والنفوذ من الميلانيين فوجدوا الفرصة السانحة ليقولوا:

- أيها الأب الأقدس، إن قداستك سيرسل هذه الهدية الثمينة الى فرنسا. ولا يخفى أن الفرنسيين قوم غلاظ لم تصقلهم المدنية. ولن يتبيّنوا الفن الرفيع الذي يتجلىّ في موديل بنڤنوتو. وشمعدانٌ كالذي عمله (طوبيا) وهو مانراه هنا، سيعجبهم كثيراً. وعمل كهذا لن يأخذ وقتاً طويلاً. ثم إن بنڤنوتو سيكون إذ ذاك متفرغاً الى إنجاز العمل بكأسك. وسيتم عمل شيئين في وقت واحد. فضلاً عن إنك ستفتح باب رزقٍ للرجل المسكين بمنحه فرصته للعمل.

كان موضوع الكأس في اليوم التالي شغل الپاپا الشاغل. فسارع بإتباع نصيحة الميلانيين وعهد في اليوم التالي بصنعه الى (طوبيا) وأبلغني عن طريق مدير المخازن[١٤٦] والمستودعات بوجوب إتمام

(١٤٥) Unicorn أي وحيد القرن. وهو حيوان خرافي يُرسم عموماً بجسم ورأس حصان وبقوائم الإبل الخلفية وذيل أسد مع قرن في جبهته. وعلى ذلك يكون القرن الذي يصفه چلليني هو للخرتيت وإسمه العلميRhinoceros Unicornis .
ولاشك في أنه كان نادراً في ذلك الزمان لأن وطن هذا الحيوان في مجاهل أفريقيا ولم يكن معروفاً من العالم الأوروپي آنذاك. فمن يحصل على قرن خرتيت لاشك يعتقد انه فاز بقرن ذلك الكائن الخرافي.

(١٤٦) هذه الدائرة تشمل مستودعات السلاح والذخيرة العامة في البلاط الپاپوي.

الكأس. فكان جوابي اني لا أريد إلاّ أن أنتهي من مثل هذه التحفة الفريدة في جمالها. ولو كان معدنه غير الذهب لأمكنني إتمامه بسرعة دون مساعدة أحدٍ. ولكن لما كان من الذهب فعلى قداسته ان يزوّدني بشيء منه إن كان يريد مني إتمامه وجواباً على الرسالة التي أبلغتها لرجل البلاط الوضيع النسب - قال:

- عونك اللهم! إيّاك أن تطلب من الپاپا ذهباً وإلاّ دفعه الغضب الى تدميرك.

فأجبتّ:

- هل يتفضل سمّوك في هذه الحالة. فيعلّمني طريقةً لصنع الخبز دون دقيق؟ ذلك لأن هذا العمل ياسيدّي المبجلّ لايتمّ قط بدون ذهب؟

بدأ هذا الموظف يدرك بأني أعبث به وأسخر. فقال إنه سينقل كلماتي بحذافيرها الى الپاپا. وقام بذلك فعلاً فهاج هائج الپاپا وقال أن سيصبر ليرى الى أي مدى يبلغ الإستهتار والجنون بي فلا أتّمه. ومرّ أكثر من شهرين، ومع إني قلت بأني لن أمد يدي إليه. فقد واصلت الوقت العمل به بكل رغبة وإشتياق وبدأ الپاپا يحمل ضغنا لي وزادت نقمته عندما وجد إني لا أنوي حمله إليه. وهدد بإنزال عقابه بي مهما كانت النتائج. وقد سمع قوله هذا جوهريّه الميلاني (پومبيو) الذي يمتّ بصلة قرابة الى المدعو(ترايانو) أقرب واحبّ موظفي الپاپا كليمنت. فأقبل كلاهما على الپاپا وقالا له:

- لو قداستك عزلته من وظيفته في دار الضرب. فربّما حفّزه ذلك على إكمال الكأس.

فأجاب الپاپا:

- سيتأتى من هذا نتيجتان سيئتان. أولاهما إني سأفتقد العمل الجيد في دار الضرب وهو بالنسبة لي أمر هام جداً وثانيهما إني لن أحصل على الكأس مطلقاً.

إلاّ أن هذين الميلانيين وقد تبينا مبلغ سخط الپاپا منيّ- نجحا بالأخير في حمله على عزلي[١٤٧] من وظيفتي وإسنادها إلى فتى (پيروجي) يعرف بإسم (فاگيولو Fagiuolo) وجاءني (پومپيو) يبلغني بأمر العزل قائلاً أنه سيعمل على حرماني من أشياء أخرى إن لم أفرغ من صنع الكأس. فأجبته بقولي:

- قل لقداسته أنه قد سلب نفسه بعزلي، ولست أنا المسلوب. وكذلك الأمر بالنسبة للأشياء الأخرى. وإن أراد إعادتي فلن أقبل قط.

خيّل لهذا النذل المنحطّ أن قدميه لاتسرعان به الى الپاپا كما يجب وما أن مثل امامه حتى أفضى إليه بما قلت مُضيفاً أكاذيب من عندياته. وبعد أسبوعٍ جاءني هو نفسه يحمل لي رسالة من الپاپا. قال ان قداسته لايريدني اكمال الكأس بعد الآن. وانه يطلب اعادته اليه بالهيئة التي آل اليها بالضبط. فأجبت هذا الرجل لايمكنه أخذ الكأس مني كما فعل بأخذ وظيفتي في دار الضرب. وزدت قائلاً:

- كما ترى: الوضع هو هذا في ذمتي خمسمائة كراون تعود الى الپاپا وسأعيدها الى قداسته فوراً

(١٤٧) كان ذلك في العام ١٥٣٣ على الارجح.

أمّا الكأس فهي ملك حلال لي أتصرف بها كما أشاء.

أسرع (پومپيو) لإبلاغ أقوالي هذه فضلاً عن عبارات مُرة قذفته بها شخصياً لإقتناعي بأنه يستأهلها.

بعد مضي يومين أو ثلاثة على هذا وكان يوم خميس جاءني إثنان من أمناء سرّ قداسته أحدهما السيد (پيير جيوڤاني) وهو بعد في قيد الحياة وقد أصبح أسقفا وكان وقتها أمين مستودعات البلاط الپاپوي. والثاني وهو أرفع منه منزلة – غاب إسمه عن ذاكرتي. وإبتدراني بقولهما:

– أي بنڤنوتو، نحن قادمان بأمر الپاپا لنبلغك بعد إخفاق كلّ المحاولات الرقيقة إمّا أن تسلمنّا الكأس أو أن نأخذك أنت الى السجن.

فتطلعت إليهما باسماً وقلت:

– ياسيدّي الموقرين. لو أعطيت قداسته الكأس فإني أنزل له عن ملكي الخاص، لا عن شيء يملكه هو. وهذا ما ليس في نيتي ولن أعطيه إياه فبعد الجهود العظيمة والمشاق التي تكبدتها للوصول به الى المرحلة النهائية. يعزّ عليّ أن يقع بيد حيوان جاهل لن يضيعّ وقتاً في إتلافه.

كان (طوبيا) الصائغ حاضراً عندما نطقت بهذا. فبلغت به الصفاقة أن يطلب مني تسليمهُ تصاميم الكأس أيضاً. وأوثر هنا أن لا أدون ردّي على طلبه. على أية حال كان الرد من النوع الذي يليق بمثل هذا المنحطّ.

والحّ عليّ أمينا السرّ بحزم رأيي على ما انتويه بسرعة. قلت لهما إنِي مستعد وتناولتُ معطفي. ثم وقبل أن أترك دكاني رفعت رأسي الى صورة السيد المسيح بكلّ إحترام – وقبعتي في يدي:

– أنت أيها الرب الأقدس الحيّ، العادل الرحيم. كل ما تفعله نابع من عدالتك التي لاتسمو إليها عدالة. ربٌ أنت تعلم إني بلغت الثلاثين من عمري، ولم اهدد بالسجن لأي عمل اتيتهُ. والآن وقد شاءت إرادتك أن أُقاد فأنا أشكرك من أعماق قلبي.

ثم التفت إلى أميني السرّ وبواحدة من التعابير الصارمة التي كانت تشيع في وجهي – قلت:

– رجل من وزني يستأهل أن يخفره حرس لايقلّ رفعةً عن سيادتكما فاجعلاني بينكما وخذاني الى حيث شئتما فأنا سجينكما.

فإنفجر السيدان الجليلان ضاحكين ووضعاني في الوسط. وسرنا ونحن نتبادل طليّ الأحاديث حتى بلغنا حاكم روما و يدعى (ماگولوتو Magolotto) وكان ينتظر مقدمي ومعه المدعي العام. وعند وصولنا قال أمين السر للحاكم وهما مستمران في الضحك:

– إننا نعهد إليك بهذا السجين. كن شديد العناية به. كان من دواعي سرورنا العظيم أن نقوم بمهام شرطتك لأن (بنڤنوتو) قال لنا أنه بمناسبة إعتقاله لأول مرة في حياته – لايستحق حرساً أدنى مناً.

وعادا الى الپاپا رأساً وقصّاً عليه ما وقع لهما فبدأ لأول وهلة وكأن مراجل غيظه ستتفجر إلاّ إنه كظم ما به وأطلق ضحكة مقتضبة. فقد كان في مجلسه عدد من وجهاء القوم والكرادلة أصدقائي ممن أعتمد على مكانتي عندهم.

في تلك الأثناء كان الحاكم والمدعى العام يستخدمان معي أسلوباً هو مزيج من التهديد والتحذير والتجريح والنصيحة. قالا: من البديهي إنه يحق للشخص الذي عهد الى آخر بالقيام بعمل شيء له أن يستعيد ذلك الشيء عندما يشاء وبالكيفية التي يشاء. فكان جوابي ان تصرفاً كهذا لاينطوي على ذرة من العدالة. وبالتأكيد ان البابا لايمكن أن يسلك مثل هذا السلوك. لأنه ليس واحداً من أولئك الأمراء الصغار الطغاة الذين يستغلون رعاياهم بأبشع مايمكن من إستغلالٍ غير آبهين للعدالة أو القانون. إن نائب المسيح لايمكن أن يقدم على شيء كهذا. عندئذ إتخذ الحاكم الوضع الذي تتسم به وظيفته بوصفه شرطياً وقال:

– بنڤنوتو! بنڤنوتو! أنت تدفعني الى معاملتك بما تستحق. عليك أن تحترم منزلتي ومركزي. وأبعث في طلب الكأس.

أجبت:

– لو أنت تعاملني بما استحق فسيكون ذلك بالتجلّة والكياسة الواجبين لي.

قال مرة أخرى:

– أبعث بطلب الكأس فوراً ولاتنتظر مني تكرار ذلك عليك.

فأجبتُ:

– تكرّما عليّ بالسماح لي بإضافة كلمات قليلة دفاعاً عن نفسي

فالتفت المدعي العام الذي كان أهدأ طبعاً بكثير من الحاكم وقال له:

– دعه ياسيدّي يتكلم مائة كلمة. فما نريده هو أن يسلّمنا الكأس فحسب.

فبدأت أقول:

– هب ياسيدي أن شخصاً ما يبني له قصراً أو داراً. وجد من حقه أن يقول للبنّاء "اني ماعدت أريد أن تشتغل عندي في قصري أو داري" فيسرّحه بعد أن يدفعٍ له لقاء عمله. انه يكون قد إستعمل كامل حقه في ذلك. أو أن نبيلاً دفع بجوهرة ثمنها ألف كراون الى صائغ لتكفيتها فوجد ان الجوهري لايقوم بالعمل كما أراده هو. فمن حقه أن يقول له "لاحاجة لي بعملك فأعد اليّ الجوهرة". إلاّ أن قضيتي لاتشبه أيّا من هاتين. إنها ليست قضية دار أو جوهرة. كل ما يمكن أن أومر به هو إعادة الخمسمائة كراون التي تسلمتها كمقدمٍ لأتعابي. ولكما ياسيدي أن لاتدخرا وسعاً أو طاقة فكلّ ما يمكنكما الحصول عليه مني هو الكراونات الخمسمائة. فأبلغا البابا بذلك. إن تهديداتكما لاتخيفني أبداً، فأنا رجل مستقيم السيرة. ولايثقل ضميري جرم أخشى منه.

فنهض الرجلان وقالا إنهما سيقصدان البابا ويعودان منه بتوصيات قد لا أجدها مبعثاً للسرور.

بقيت موقوفاً ورحت أقطع القاعة الواسعة ذهاباً وإياباً ومرّت ثلاث ساعات قبل أن يعودا وفي أثناء غيابهما توافد عليّ كل كبار التجار الفلورنسيين زائرين وشرعوا يتوسلون بي بحرارة أن أضع نهاية لهذا الخصام مع البابا أو سيكون فيه دماري. فكان جوابي إني قد قررت قراراً لا رجعة فيه على ما أنويه.

ما أن عاد الحكم والنائب العام من القصر حتى استدعياني للمثول أمامها وتكلم الحاكم بما يلي:

- يؤلمني بابنڤنوتو أن أعود من نائب المسيح الأقدس بهذه الأوامر، إما أن تجلب الكأس في الحال أو أن تتدبر أمر نفسك.

فأجبت: ماكنت أصدق حتى هذه الساعة أن يصدر من نائب المسيح الأقدس مثل هذا الظلم. وإني لأنوى أن أراه واقعاً قبل أن أصدقه قولاً. ثم أردفت:

- فأفعلا اذن مايمكنكما بي.

قال الحاكم:

- بقي شيء قليل مما حملته من البابا وعليّ أن أصارحك به ثم أقوم بتنفيذ الأوامر التي تلقيها، يقول: عليك أن تأتي بالكأس الى هنا. وعَليّ أن أودعه صندوقاً وأختمه ثم أحمله إليه. إنه وعد بشرفه أن لايكسر الختم، وأن يعيده إليك دون تأخير وهو يريد أن يتمّ كل ذلك حفظاً لماء الوجه. فضلاً عن شرف كلمته.

فأجبت ضاحكاً يسرني جداً أن أنزل له عن الكأس بالشكل الذي رسمه لأني أريد التأكد كم تسوى كلمة البابا.

ثم بعثت بطلب الكأس فختم عليه بالشكل الذي رسم وسلمته للحاكم فأخذه الى البابا تحت هذه الشروط. وبحسب ما أنبأني الحاكم أن البابا تسلّم الصندوق وصار يقلبّه عدة مرات ثم سأله هل شاهد ما بداخله فأجاب الحاكم بالإيجاب وان الختم عليه جرى بحضوره ثم أردف يقول أن الكأس في رأيه تحفة رائعة. وعند هذا قال البابا:

- خبرّ بنڤنوتو أن البابا‌وات يملكون سلطان الحَلّ والعقد في أمور أخطر وأعظم بكثير من هذا.

قال هذا وبحركة خفيفة تنمّ عن الغضب فتح الصندوق وحَلّ الخيط وكسر الختم.

ثم راح يتفرس فيه ملياً. وعلمت فيما بعد أنه عرضه على الصائغ (طوپيا) فلهج بالثناء عليه. فسأله البابا أيمكنه الإضطلاع بمثل هذا النوع من الشغل وعندما أجاب بالإيجاب أوصاه بأن يتبع تصميمي ولايحيد عنه ثم التفت الى الحاكم وقال له:

- أنظر فيما إذا رغب بنڤنوتو فسأدفع له في حالة تنازله عنه لنا مايقدّره أهل الخبرة. وإذا شاء أن يتمّه لنا بنفسه فدعه يضرب لنا أجلاً محدداً. وإن وجدته مستعداً فعلاً لذلك فسأدفع له كل مايحتاج للعمل به ضمن حدود معقولة.

فأجاب الحاكم:

- أيها الأب الأقدس إني لأدري من أي معدن فظيع صُبّ هذا الفتى فخولني سلطةً تمكنني مِن تلقينه درساً بليغاً بأساليبي الخاصة.

وكان تعقيب البابا على هذا. أنه مخوّل بأن يفعل مايشاء في حدود الكلام فحسب وإن كان واثقاً بأنه سيعقّد الأمور بهذا. وعلى أية حال إن لم يجد وسيلة لتسوية الأمور غير إستعادة النقود فليبلغني بدفع الكراونات الخمسمائة الى جواهريه (پومپيو).

عاد الحاكم وإستدعاني الى مكتبة ونظر اليّ عابساً مقطباً كما لو كنتُ أحاكم وقال:
- للپاپاوات سلطان على حَلّ وعقد أي شيء في الدنيا وكل ما يفعلونه يكون موضع رضا السماء. هذه هي كأسك. بعد أن فتحها قداسته وفحصها.
فأسرعت أقول بصوت جهوري:
- شكراً لله. فقد صرت أعرف الآن قيمة كلمة الپاپا.
بدأ الحاكم يتهدّدني ويتوعدّني حتى إذا وجد ذلك لايجديه شيئاً تحول الى الملاينة والملاطفة. فقال:
- بنڤنوتو! إني لشديد الأسف عليك لأنك لاتدري أين تكمن منفعتك. وعلى أية حال يمكنك أن تنصرف الآن. وأدفع الكراونات الخمسمائة الى (پومپيو) متى شئت ذلك.
خرجت أحمل كأسي. وبادرت الى دفع المبلغ. وربما خيّل لصديقي الپاپا الذي كان حريصاً على أن يشدّني الى خدمته ويضع في عنقي طوق العبودية ثانية - إني لا املك المبلغ بتمامه أو اني لن أعيده لأسباب أخرى. وربما خُيّل له إني لن اسدده فوراً. فلما جاء (پومپيو) ضاحك الثغر وفي جيبه المال. بدأ ينهال عليه بالكلام الجارح ويشكو بمرارة من النتيجة السيئة التي آلت إليها القضية. قال له:
- إذهب الى بنڤنوتو في دكانه. وكن معه لطيفاً مؤدباً بقدر ما يؤهلك له جهلك الحيواني. وقل له إن كان يرغب في إكمال الكأس وعمل وعاء للقربان المقدس أحمله عند الإحتفالات مع الكأس فسأدفع له كلّ ما يحتاجه لإكماله شريطة أن يشتغل.
ناداني (پومپيو) فخرجت إليه من الدكان. وبدأ يتبصبص لي ويتملقني هذا الأحمق الأبله وردد كلّ ما أمره الپاپا بانهائه اليّ. فأجبت في الحال إن أمنيتي الكبرى في هذه الدنيا هو إستعادة مكانتي عند مثل هذا الپاپا العظيم تلك المكانة التي فقدتها لا بخطأ منيّ بل بسبب مرضي الشديد وسوء سريرة الحسّاد الذين لا هَمّ لهم غير عمل الشرّ. ثم أردفت:
- وبما أن للپاپا العديد من الخدم والأتباع. فارجو أن لاتدعه يرسلك اليّ ثانيةً، إن كنت تريد ان تبقى حيّاً. وان كانت حياتك عزيزة عليك فعليك أن تلزم جانب الحذر. إني لن اتواني عن خدمة الپاپا ليلاً ونهاراً مفكراً في إرضائه. إمّا أنت فلا تنس بعد حملك رسالتي هذه الى قداسته أن تتحاشاني ولاتتدخل في شؤوني وان فعلت ذلك فسأنزل بك العقاب الذي تستحقه. وعندها ستدرك الذنوب التي إقترفتها.
نقل هذا الرجل كل ماقلتهُ وحرّف في كلماتي لتبدو أشد قوة. ولتخلّف إنطباعاً أسوء. وبقيت الأمور على هذه الحال فترة كنت خلالها حاصراً اهتمامي بعملي في الدكان. في تلك الأثناء كان (طوبيا) عاكفاً على إنهاء زخرفة ونقش قرن (اليونيكورن) فضلاً عن تكليف الپاپا إياه البدء بالكأس على نفس القاعدة والأسلوب الذي إتخذته. لكنه أصيب بخيبة وإستياء بعد أن شاهد ما أنجز فيهما. وبدء يندم متحسّراً على قطع علاقته بي. ولم يحز العمل بالقرن رضاه فأخذ ينحى باللائمة على أولئك الذين زكّوا له (طوبياً) وبنتيجة هذا صار (باچينو دللاّ كروچي Baccino della Groce) يختلف اليّ كثيراً طالباً منيّ بإسم الپاپا أن أبدء العمل في وعاء القربان الشعاعي. فأجبت برجائي من

قداسته أن يتيح لي فترة نقاهة بعد المرض الذي ألمَّ بي. إذ لم أشف منه بعد بصورة تامة. على إني أضفت مستدركاً إني سأثبت لقداسته كيف إدخرت له كل ساعة وجدتني قادراً على العمل فيها. وقد باشرت بعمل صورة له من المعدن وأكملت القوالب الفولاذية لأطبعها هنا في بيتي. وقد سهل ذلك وجود شريكي (فليچي Felice) عندي وكان قبلاً تلميذي.[١٤٨]

في ذلك الزمن جريا وراء نزوات الشباب تعلّقت بهوى فتاة صقلية جميلة جداً وبدا منها أيضاً إنها تبادلني الحبّ. إلاّ ان أمّها وقفت على الأمر وبدأت تشكّ فما سيعقب ذلك. في الواقع إني قررت الهروب مع الفتاة الى فلورنسا والبقاء ثمَّ لمدة سنة دون البوح بكلمة واحدة للأم. إلاّ انها سمعت بما أنويه فغادرت روما سراً تحت جنح الليل سالكة طريق ناپُلي وأشاعت إنها ستتجه عن طريق (چيڤيتا فيكيا Civita Vecchia)[١٤٩] لكنها رحلت من طريق (أوستيا Ostia)[١٥٠] فلحقت بهما متبعاً الطريق الأولى وصيّرتني أضحوكة في محاولة العثور عليها. والقصة تطول إن فصّلت وقائعها. وكل ما أريد قوله هو اني كنت على شفا الجنون أو الموت. وبعد مرور شهرين كتبت تقول إنها في صقلية وإنها في غاية التعاسة في عين الوقت قذفت نفسي الي أحضان الشهوات واللذائذ وعلقت بحبّ جديد كيما أسلو الأول.

أدت سلسلة من الظروف الغريبة إلى قيام صداقةٍ بيني وبين كاهن صقليّ كان في غاية الذكاء وعلى إطلاع واسع باللاتينية واليونانية. ومرة كنّا نتسامر فجرّنا الحديث الى فنّ إستحضار الأرواح السفلية. فقلت:

– كنت أرغب طول طول حياتي في رؤية أو سماع شيء عن هذا الموضوع.

لما سمعني الكاهن أُبدي هذه الملاحظة أسرع يقول:

– الرجل الذي يباشر في مثل هذه الأمور يجب أن يكون شجاعاً قوي العزم والإرادة.

فأجبت: لو سنحت لي الفرصة فسأبرهن بأني أملك الكثير من الشجاعة والعزم، فقال:

– لو كنت حسن العدّة من هاتين الصفتين فسأملأ جوفك من هذه الأُمور.

واتفقنا على إجراء تجربة في إستحضار الأرواح معاً. وفي أمسيةٍ أكمل القسّ إستعداداته وطلب مني أن أدعوا أثنين لا أكثر. فأخذت صديقي العزيز (ڤنچنزيو روموليVincenzio Romoli) وجاء القس برجل من پستويا[١٥١] من الذين يمارسون عمل إستحضار الأرواح. فانطلقنا الى الكوليسيوم[١٥٢]

(١٤٨) اسمه الكامل فليچي كواندنيي وهو من أخلص أصدقاء چلليني وسيأتي ذكره فيما بعد.

(١٤٩) بلدة على الساحل الغربي تقع شمال روما بمسافة ٦٠ كيلومتراً تقريباً.

(١٥٠) بلدة على الساحل الغربي تقع جنوبي روما بمسافة ٣٠ كيلومتراً.

(١٥١) بلدة تقع شمال غرب فلورنسا بمسافة أربعين كيلومترا.

(١٥٢) أهم آثار روما وهو بناء ضخم ذو أربع طبقات ذات مقاعد مدرجة وفي وسطه ساحة لألعاب المصارعة بدء ببنائه الأمبراطور ڤسبسيان في ٧٢ ميلادية وانتهى منه بعد ثماني سنوات وهو على شكل بيضوي أطول قطر فيه بطول ١٨٨ متراً. ومحيطه ٥٢٧ متراً وكان يسع حوالي خمسين الف متفرج. وهو في وقت چلليني خرائب كما يبدو الآن تقريباً.

وهناك إرتدى القس الجبة التي يرتديها مستحضرو الأرواح. وبدء يرسم على الأرض دوائر ويأتي بمراسيم وحركات مذهلة للغاية. وكان قد أشار علينا بجلب بعض البخور الثمينة ونار متقدة. ومادة كريهة الرائحة. بعد أن هيّأنا كل شيء. دخل القس الدائرة ثم أدخلنا إليها بيده الواحد بعد الآخر، ووزّع علينا الأعمال. فأعطى ذات الخماسيّة[١٥٣] زميله المستحضر. وأناط بي وبرفيقي العناية بالنار وإحراق البخور. ثم بدء يُهمهم ويجمجم أكثر من ساعة دون إنقطاع. وظهرت فرق من الأرواح أثر فرق حتى غصّ الكوليسيوم بها وكنت منشغلاً بالبخور. فبعد أن شاهد القس هذا الجمع الحاشد من أرواح الجان التفت اليّ قائلاً:

- بنڤنوتو! سلها عما تريد.

قلت:

- أريد أن تجمعوني بفتاتي الصقلية أنجليكا.

فلم نظفر بجواب تلك الأمسيّة. إلاّ ان شوقي أزداد الى المزيد مما رأيتُ. ولكن مستحضر الأرواح أشار بأن علينا أن نعاود التجربة وسأحصل على مايشفي غليلي تماماً من كل ما أسأل عنه. إلاّ أنه إشترط على أن أجلب معي صبياً صغيراً طاهر الذيل لم يرتكب فاحشة.

أخذت معي واحداً من صبيان دكاني لايتجاوز عمره الإثني عشر عاماً كما صحبت (ڤنجنزيو روموولو) السالف الذكر. ولما كان (آنيولينو گادي Agnolin Gaddi) صديقاً لكلينا فقد ضممناه إلينا. وعند وصولنا المكان السابق أخذ مستحضر الأرواح يستعد كالسابق ولكن بدقة وعناية أكثر ثم أدخلنا الدائرة التي رسمها بكثير من المراسيم والفخامة والجمجمة ثم طلب من صاحبي (فنچنزيو) أن يهتم بالبخور ووضع النجمة الخماسية في يدي وطلب مني إبقائها موجهة الى الأنحاء التي يعينها لي. فأوقفت صبي الدكان الصغير تحتها تماماً. وكان (آنيولينو گادي) يعاون فنچنزيو في النار والبخور.

وبدأ مستحضر الأرواح بهمهمته وجمجمته المرعبة، منادياً أجواقاً من الجنّ بإسمائها آمراً إياها بسلطان الله الحيّ الأزلي غير المخلوق. مستخدماً اللغة العبرانية فضلاً عن اليونانية واللاتينية. وكانت نتيجة ذلك أن إمتلأ الكوليسوم على رحبه بعدد من الجن يزيدون مائة ضعف على أقبل منهم في المرة الأولى في خلال فترة وجيزة. وظل ڤنجنزيو وأنيولينو مشغولين بالنار وبأكداس كبيرة من البخور النادر. ثم أشار الساحر عليّ فعدت أطلب الإجتماع بانجليكا. فالتفت اليّ قائلاً:

- أما سمعتهم يقولون إنك ستكون حيث هي خلال شهرٍ واحد؟

ثم عاد يتوسّل بي أن أصمد لأن الأرواح الموجودة تزيد بألفٍ عَمّا إستحضر منها وإنها من أخطر جنسٍ. وبما إنها وافقت على ماطلبناه منها فعلينا - حسب قوله - ان نعاملها بلطف وان نصرفها برقة وبكثير من الأناة. وفي تلك الأثناء أطلق الصبي الذي كان واقفاً تحت النجمة الخماسية - صرخة مريعة وقال مرتعداً أن ملايين من أهول الرجال شكلاً يحفّون بنا ويهددّونا. وأضاف يقول أن أربعةً من أضخم المردة الجبابرة قد ظهروا وهم مدججون بالسلاح يهمّون بالإطباق علينا. وكان مستحضر الأرواح

(١٥٣) أداة على شكل نجمة مخمسة أو مخمس اعتيادي مما يستخدمه السحرة والمنجمون.

المرتعد فرقاً طوال الوقت يحاول بكلّ ما في وسعه اقناعهم بالإنصراف عنّا متوسلاً برقة وبلطف. وراح (ڤنجنزيو) الذي كان يهتز كالقصبة في مهبّ الريح يزيد في حرق البخور. ولم أكن أنا نفسي بأقل هلعاً من الآخرين إلاّ اني حاولت أن أبدو بالأقل منه. فشددت من عزماتهم وشجعتهم. وإن كنت أكاد أسقط ميتاً عند رؤيتي مدى الخوف الذي تملك مستحضر الأرواح.

دفن الصبي رأسه بين رجليه وهو يبكي وقال:

- سأموت هكذا! كلنا سنموت!

فقلت له:

- كل هذه المخلوقات هي عبيد وخدم لنا ليس إلاّ. وكل ماتراه هو محض دخان وأشباح فهيّا ارفع رأسك.

رفع رأسه ثم صرخ ثانية:

- الكوليسيوم كلهُ يلتهب والنار تندفع إلينا.

ثم حجب عينيه براحتيه، وطفق يبكي قائلاً إنه الآن ميت ولايريد أن يرى شيئاً بعد الآن وإستنجد مستحضر الأرواح بي متوسلاً راجياً أن أُصمد مشيراً بأن أحرق شيئاً من بخور الحلتَيْت[١٥٤] فتوجهت الى (ڤينچنزيو) بالطلب حالاً وفيما أنا أخاطبه تطلعت الى أنيولينو گادي الذيَ كان شبه ميت من فرط الخوف وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما فصحت به:

- آنيولو! لا داعي للخوف في موقف كهذا. عليك أن تمد يد العون لنا. أقذف بشيء من الحلتيت في النار حالاً.

وفيما كان يهمّ بالتحرك أطلق ضرطةً مجلجلة وأدركته الحاجة الى التبرّز بشكل لا قبل له بدفعها فلم يستطع حبسها فكانت ريحها أشدّ نتانةً من الحلتيت نفسه وأفاق الصبي على الصوت الداوي والريح النتنة فرفع رأسه قليلاً ولما سمع قهقهتي زايلهُ شيء من الخوف. وقال إن الجان بدأ يولي الأدبار كالمجانين. وبقينا حيث نحن إلى أن سمعنا ناقوس السحّر. وعندها فتح الصبي فمه ثانية ليعلن بأنه لم يبق من الشياطين غير قليل وهم بعيدون جداً عنّا. وبعد أن أكمل السّاحر مراسيمه خلع قباءة وجمع أكداس الكتب الكثيرة التي كان قد جلبها ثم خرجنا جميعاً من الدائرة واحدنا ملتصق بالآخر سيّما الصبيّ الذي حشر نفسه في الوسط متشبثاً بسروال الساحر من جهة وبمعطفي من الجهة الأخرى. وكان لايفتأ يصيح ونحن نسير نحو منازلنا حِذاء الضفة بأن الشياطين التي رآها في الكوليسيوم تتراقص أمامنا. فتعلوا اسطح المنازل وتهبط علَى الأرض مرة بعد مرّة.

وقال مستحضر الأرواح إنه دخل الدوائر السحرية مرات عديدة لكن لم يتفق له أن شهد شيئاً بهذا المقدار. وحاول إقناعي بالقيام بتكريس كتاب للشيطان[١٥٥] معاً قائلاً إننا سنجني من ذلك ثروة

(١٥٤) نباتٌ يكثر في الشرق وإسمه العلمي Asafoetida وهو من فصيلة الجزريات كان يستخدم في طب القرون الوسطى لعلاج التشنج ويتعاطاه الناس أيضاً للوقاية من المرض.

(١٥٥) المقصود من هذا غير مفهوم. ولم نهتد الى أي ترجمة أو شرح ينير السبيل لنا.

طائلة إذ سيكون في وسعنا الطلب من الجنّ إرشادنا الى دفائن الكنوز التي يعجّ بها جوف الأرض وبهذا سنغدو أثرياء جداً. وقال أن كلّ شؤون الغرام والعشق هو عبثٌ وحمق لاتكسب المرء شيئاً ولاتجديه. فأجبته إني لشديد الرغبة في العمل بما قال لو إني أعرف شيئاً من اللاتينية. على إنه ظلّ يحاول إقناعي قائلاً أن المعرفة باللاتينية لا نفع فيها ولو شاء لاستخدم عدداً كبيراً ممن يتقنها. إلاّ أنه لم يجد شخصاً واحداً له قوّة إرادتي وإنه لمن الحكمة أن أصغي الى نصحه وظلّ يضرب على هذه النغمة حتى بلغنا المنزل. وفي تلك الليلة صار كل منّا يحلم بالشياطين والجان.

صرت التقي بالسّاحر كلّ يوم تقريباً وظلّ يلحّ على بمشاركته في مشروعه الذي ذكرهُ. وأخيراً سألته كم يقتضي له من وقت. وأين بتعين علينا أن نذهب؟ فأجاب سنبلغ غايتنا في أقل من شهر. وأصلح موضع هو جبال (نورچيا Norcia)[١٥٦]. وأضاف يقول ان واحداً من أساتذته كرّس كتاباً في موضع قريب جداً يعرف بإسم (باديا دي فارفا Badia di Farfa)[١٥٧] إلاّ انه عانى في الحقيقة بعض الصعوبات فعلينا والحالة هذه أن نتحاش إجرائها في الجبال. هذا فضلاً عن أن الفلاحين في نورچيا أناس ذوو تجربة وممارسة وممن يوثق بهم في هذا الفنّ الأسود. وسيكونون خير عونٍ لنا عند الحاجة. لاشك وأن هذا الكاهن الساحر ذو قابليّة عظيمة على الإقناع إذ ما وجدت نفسي إلاّ وأنا أكثر من مستعدٍ الى مشاركته في مشروعه. لكني إشترطت أن يدعني أفرغ من عمل ميدالياتي الپاپا. وقد أفضيت للكاهن بسرّي هذا فكان الأوّل في الوقوف عليه ورجوته أن يكتمه في نفسه. في عين الوقت بقيت أسأله هل يعتقد إني سألتقي بالفتاة الصقليّة خلال الوقت الذي وُعدت به فقد إستغربت كثيراً لدنوّ اليوم المضروب للقاء وأنا لا أسمع شيئاً عنها. فأجاب مؤكداً بأني سأجد نفسي في المكان التي هي فيه لإن الجنّ لا تنكل عن وعودها قط وستفى بالعهد الذي قطعته لي. إلاّ إنه ينبغي أن أكون على حذر وأبقي عيني مفتوحتين لخطبٍ أو مصيبة محتملة. وأضاف يقول: يجب على أن أرغم نفسي على إحتمال شيء يصعب الصبر عليه والسكوت عنه وفيه أعظم الخطر. وقال سيكون مفيداً لي لو رافقته لتكريس الكتاب. فهو الطريقة التي يمكنني بها تفادي ذلك الخطر العظيم والحصول على الثروة الطائلة في عين الوقت وصرت الآن مهتماً بالأمر أكثر منه. قلتُ له أن شخصاً يدعى (چيوڤاني دا كاستيل بولينزي Giovanni da Castel Bolognse) وهو خبير متضلع في عمل المداليات من النوع الذي أقوم حالياً بصنعه من معدن الفولاذ. قد حلّ الآن في روما وأن مطمحي الوحيد هو منافسة هذا الفنان لأسترعي إنتباه الدنيا وإعجابها ... فبالكشف عن مهارتي بهذه الوسيلة لا بحدّ سيفي سأقضي على أعدائي قضاء مبرماً. إلاّ إنه ظلّ يلحّ عليّ بقوله:

– أرجوك يا بنڤنوتو، أرجوك، تعال معي وأجتنب الخطر العظيم الذي أراك معرضاً له.

إلاّ إني كنت عاقد العزم على الفراغ من ميدالياتي أولاً مهما كلف الأمر. وإقتربت نهاية الشهر وأنا غارق في بحر عشق ميدالياتي بحيث نسيت (أنجيليكا) وأضرابها وإستغرقت تماماً في عملي.

(١٥٦) الجبال القريبة من بلدة نورچيا وهي على مسافة ١٣٠ كيلومتراً تقريباً شمال شرقي روما.

(١٥٧) موضع يقع في مرتفعات السابين. Sabine في ضواحي روما.

في ذات يوم وكان الوقت قريباً من موعد صلاة العشاء. خطر لي ببالي أقصد دكاني لسبب ما خلافاً لموعدي الإعتيادي وكان منزلي خلف الضفة في حين تقع دكاني على الضفة. وكنت قليل الإرتياد لها إذ تركت الأشغال بعهدة شريكي (فيليچي). ومختصر القول، بعد أن مكثت هناك برهة تذكرت بأني على موعد مع (السّاندرو دل بيني) فغادرت الدكان حالاً وعند وصولي الضفة التقيت (السيد بنديتو) وهو من أعزّ أصدقائي.

كان (بنيديتو) مسجلّ عقود وقد عاش في فلورنسا. وهو إبن شحاذ ضرير من أهل (سيينا) سكن عدة سنين في (ناپُلي). ثم إنتقل الى روما حيث كان بعض التجار السينييّن قد عهدوا إليه بتمشية أعمال تجارية وإختصّ منهم بأسرة كيجي.(١٥٨)

وكان شريكي فيليجي يديم ملاحقته ومطالبته بمبلغ من المال له في ذمته نشأ عن شراء (بنديتوّ) بعض الخواتم منه. وفي يوم التقائنا بالذات كان شريكي قد لقيه عند الضفة وهو برفقة عدد من مخدوميه فبادر (فليچي) بصلافته المعهودة وأسلوبه الفظّ يطالبه بالدين فتهاترا. وعندما رأى مخدوموه مايجري أخذوا ينتهرونه وقالوا انهم لايريدون شخصاً تتعقبه الكلاب النابحة. وأنهم سيستخدمون آخر عوضاً عنه فحاول الدفاع عن نفسه دفاعاً مستميتاً قائلاً إنه سيردّ للصائغ دينه. وإنه لم يعد يستطيع ضبط نفسه ليتحاشى فورة رجال مجانين. فحزّ في نفوس التجار السيينيّن تلفظه بمثل هذه العبارة. وفصلوه من وظيفته في الحال. وبعد أن تركهم. إنطلق الى دكاني كالقذيفة ولعله كان يريد الإنتقام من (فليچي) وشاءت الصدف أن يلقاني وهو بهذه الحالة في وسط الضفة. وأنا الذي كنت أجهل الناس بالقضية بادرت فحييته بحرارة كعادتي. وكان الردّ الوحيد الذي جاءني منه رشقةً من الشتائم والسباب. وتذكرت في الحال تحذيرات الساحر كُلّها. فكظمت شعوري وغالبت نفسي مانعاً إياها عن الإتيان بعمل ترغمني عليه كلماته وقلت

– سر بنيديتو أي صديقي العزيز لاحاجة بك إلى مخاشنتي فأنا لم أسيء إليك قطّ. ولا علم لي مطلقاً بما تشكو منه. وأما عن قضيتك مع فيليچي فأذهب إليه وتفاهم معه فهو أدرى بالجواب الذي يناسبك. أما أنا فلا أعرف شيئاً عن الموضوع. أرجو الاّ تسيء اليّ بشتمي على هذه الشاكلة لاسيما وأنت تدرك جيداً بأني لست من أولئك الذين يصبرون على إهانة.

فعاد يتهمني بأني على علم تام بالمسألة. وقال إنه من صنف الرجال الذين يرغموني على إحتمال الأكثر من هذا وأني وفيليچي زوج من أكبر النصابين والأنذال.

كان قد تجمع حولنا عدد من المتفرجين يرقبون المباراة. إستفزني بهذه الشتائم القبيحة والحق يقال فما وجدتُ نفسي إلاّ وأنا أنحني الى الأرض وأجمع قبضتي على كمية من الوحل (كانت الدنيا ماطرة) وبسرعة البرق لطمت بها وجهه. فانكفأ الى الخلف فأصابت زاوية حادة من تلك الحجارة رأسه فسقط على الأرض فاقد الوعي. ولكثرة النزف منه عجلّ المتفرجون بالحكم بموته.

وبينما كان ممدداً على الأرض وبعض الناس يتهيّأون لنقله. مرّ بهم (پومپيو) الجواهري الذي جئت

(١٥٨) جاء ذكر اسرة كيچي ووصف مقدار نفوذها وغناها في حاشية سابقة.

الى ذكره قبلاً وكان الپاپا قد إستدعاه لأمر يتعلق بعمله. فشاهد سوء حال (بنيديتو) وسأل عن الضارب فأجيب:

- الضارب بنڤنوتو. ولكن المضروب هو المعتدي.

وما أن صار أمام الپاپا حتى بدأ هذره بقوله:

- أيها الأب الأقدس، بنڤنوتو قتل (طوبيّا) الصائغ وقد شهدتُ الحادث بامّ عيني.

وإجتاحت الپاپا فورة من الغضب فأمر الحاكم الذي كان موجوداً عنده بالقبض عليّ وشنقي في المحلّ الذي شهد الحادث. وأكدّ عليه بأن لايترك حجراً إلاّ قلبه بحثاً عني وأن لايريه وجهه حتى يتمّ شنقي.

لما تبيّنت المأزق الذي وقعت فيه وأنا أرى هذا الحقير ملقى على الأرض صرت أفكر في قوة خصومي وما سينجم عن الحادث من عواقب. فأسرعت عدواً ولجأت الى (جيوڤاني گادّي) الموظف في بلاط الپاپا وفي نيتي أن أتهيأ على جناح السرعة لترك روما.

لكن (جيوڤاني) نصحني بأن لا أكون عجولاً بهذا القدر إذ ربما لم يكن الأمر بالخطورة التي تصورتها ثم أرسل يستدعي (أنيبال كارو) الذي يشاطره السكنى وطلب منه أن يذهب لإستطلاع الأمر والى أي حَدّ تطور. وفي أثناء ذلك دخل نبيل روماني وكان من خاصة الكردينال دي مديتشي[١٥٩]. وقد أرسله الكردينال إلينا. إنتحى بنا جانباً ثم أخبرنا بما نقله الكردينال له عن لسان الپاپا وليس ثم سبيل والحالة هذه لطلب معونة الكردينال. ونصح بأن أحاول جهدي لأتفادى العاصفة الأولى لغضبته. وأضاف يقول إن أي منزل في روما غير مأمون. وما أن غادرنا حتى رمقني (جيوڤاني) بنظرة كاسفة وبدأ وكأنه يكاد ينفجر باكياً. وقال:

- ما أتعسني وأشقاني إذ لا أرى طريقاً لمساعدتك قط.

فأجبت:

- بعون اللّه وحوله سأعين نفسي وكلّ ما أطلب منك هو إعارتي حصاناً.

كان قد أمر بأن يُسرجَ جواد عربي أسحم، أرشق وأبدع حصان في روما كلّها. فامتطيتهُ ووضعت بندقيّة محشوة فوق حافة السرج الأمامية مهيئة لإستخدامها في الدفاع عن نفسي. وعندما بلغت جِسر (سيستي Sisti) وجدت حرس الشرطة كلهم ينتظرون فيه راكبين وراجلين. فلكزت الجواد فانطلق بي يعدو هذباً ومرق من بينهم والشكر لله الذي أسدل غشاوة على أبصارهم، وهكذا نجوت. ثم إتجهت بأسرع ما أمكنني قرية إسمها (پالومبارا Palombara) وهي مُلك للنبيل (جيوڤانباتستا ساڤللو Giovanbatita Savello)[١٦٠] بعد هذا أعدتُ الحصان الى جيوڤاني. ولم أعلمه بمحل إختفائي.

(١٥٩) هو ايپوليتو الأبن غير الشرعي لجوليان دوق نيمور. كان رجل حرب أكثر منه رجل دين تآمر على اليساندرو قريبه. ثم عرض خدماته على شارلكان في حملته لغزو تونس ومات على ما قيل - بالسمّ في آپوليا، العام(١٥٥٥).

(١٦٠) من نبلاء روما قائد كتائب الخيالة في قوات الپاپا كليمنت السابع. ومازالت قلعة ساڤيللي قائمة اليوم في=

آواني السيد جيوڤانبانستا يومين في منزله وأراني من التكريم والحفاوة ما أعجز عن وصفه ثم أشار عليّ بمغادرة (پالومبارا) والتوجّه الى (ناپُلي). حتى تمر العاصفة وأرفق معي دليلاً لإرشادي الى الطريق. وفي أثناء سفري التقيت بصديقٍ نحّات كانت وجهته (سان جرمانو San Germano) لإكمال ضريح پييرو دي مديتشي في (مونت كاسينو Monte Cassino)[١٦١] وهو يُدعى (سُولُوسْمِيو Solosmeo)[١٦٢]. وقد زوّدني بماكنت أتلهّف الى سماعه من الأخبار. روى لي كيف ان الپاپا كليمنت أرسل أحد أمنائه مساء يوم فراري للسؤال عن (طوبياً) فوجده يشتغل في دكانه سليماً معافى لايدري شيئاً عما يجري. وعندما أبلغ الپاپا بالأمر إستدار نحو (پومپيو) وقال له:

– إنك لنذل حقير. لكن دعني انذرك. لقد أيقظت الأفعى التي ستلدغك وهو ماتستّحقهُ.

ثم طلب من الكردينال دي مديتشي أن يحيطني بالرعاية لأنه لايريد أن يخسرني مهما كلّف الأمر.

في تلك الأثناء كنت أنا (وسولوسميو) في دربنا الى جبل كاسينو ونحن نغنيّ. ومن هناك إنطلقنا نحو ناپُلي بعد أن قام رفيقي بتنظيم أعماله هناك. ولما صرنا على مسافة نصْف ميل من المدينة إعترضنا صاحب حانٍ فدعانا الى حانه وقال انه عاش سنوات عدة في فلورنسا قائماً على خدمة (كارلو جينوري Carlo Ginori)[١٦٣] ولكوننا فلورنسيين فإنه سيحفنا بضروب من الرعاية والتكريم مما لانحلم به إذا ما حللنا عنده. فأفهمناه مراراً وتكراراً بألاّ رغبة لنا في الذهاب معه فصار يتقدمنا مَرّة ويتأخر عنّا مرة مردداً الدعوة بقوله إنه ليودّ أن نزور حانه. فضايقني كثيراً ولذا سألته أيعرف محلّ إقامة امرأة صقليّة تدعى (بياتريس) وبنتها الجميلة (أنجليكا) وكلتاهما من بائعات الهوى. فظن إنني أسخر به فصاح:

– لعن الله كلّ بائعات الهوى وكل عشاقهنّ!

ثم لكز حصانه بمهمازيه وإبتعد عنّا نافضاً يديه منّا. وحسبت إني نجوتُ أو كدتُ من هذا الوحش المزعج، بهذا الشكل البارع. إلاّ اني كنت واهماً لأن ذكرى حبي العظيم لأنجليكا إندفع بقوة عارمة وفيما كنت أحدث رفيقي به متنهداً متأوها تأوه الواله المغرم إذا بصاحب الحان يكرّ راجعاً بسرعة خاطفة. حتى صار بيننا وهتف:

– قبل يومين أو ثلاثة. نزلت امرأة وفتاة في منزل قريب من حانتي. وإسماهما عين ما ذكرت. لكني لا أدري هل هما من صقلية؟

فأجبت أن لإسم (أنجيليكا) معنى كبيراً عندي ولذلك صممتُ الآن على زيارة حانه وهكذا دخلنا مع

=پالومبارا على بعد (٣٧) كيلومتراً من روما قرب جبل جنارو Gennaro.

(١٦١) يقع جنوب شرقي روما ويبعد عنها بحوالي مائة وثلاثين كيلومتراً.

(١٦٢) وإسمه الحقيقي أنطونيو دا سيتينيانو A. da Settignano: وهو نحات متوسط الكفاءة وتلميذ سانسوڤينو. لم يكن إلاّ واحداً من عدة نحاتين أستخدموا في نحت ضريح (پيرو) إبن لورنزو الكبير. مات غرقاً في ١٥٥٤. ان الكره لباندنللو هو الذي جمع بينه وبين چلليني.

(١٦٣) أنتخب رئيساً (گونفالونيراً) لدولة فلورنسا في ١٥٢٧ وبقي في الحكم شهرين.

مضيفنا مدينة ناپُلي ونزلنا في حانه. وماصبرت فقد خيّل أن دهراً مَرّ على نقل متاعي فتوجهت الى الدار القريبة، حيث وجدت (أنجيليكا) فرحبّت بي ترحيباً زاخراً بالعواطف والأشواق وبقيت معها من حوالي الساعة الثانية والعشرين قبل الغروب حتى صباح اليوم التالي في متعة لم أذق مثلها طوال حياتي.

وفي وسط لذتي وإنشراحي هذه تذكرت أن هذا اليوم هو آخر أيام الشهر الذي كان قد حددته الجنّ في دائرة الساحر كموعدٍ للقائي بأنجليكا. ألا فليفكرّ ملياً كلّ من يتدخل في أمور الأرواح بالأخطار العظيمة التي تعرضتُ لها.

وأتفق إني كنت أحمل في صرتي خاتماً ألماسياً. فعرضته على صاغة ناپُلي وقد وجدت مع صغر سنيّ إنّ لي سمعة كبيرة في ناپُلي أهّلتني الى أن أحظى بأعظم التكريم والترحيب من صاغتها. ومنهم جواهري عالي المكانة اسمه (دومينيكو فونتانا Domenico Fontana). فخلال الأيّام الثلاثة التي قضيتها في ناپُلي أغلق هذا الرجل الشهم دكانه ولم يتركني لحظة. فأخذني الى عددٍ كبير من الآثار القديمة الرائعة داخل ناپُلي وخارجها. بل وصحبني للسلام على نائب الملك الذي أسرّه برغبته الشديدة في التعرف بي.(١٦٤)

وعندما أفسح لنا السبيل الى سمّوه رحبّ بي أجمل ترحيب وفيما هو يلقي التحية إستقرت عينه على الخاتم الألماسي الذي ذكرته فطلب مني أن أسمح له برؤيته ورجاني أن لا أنساه إن خطر ببالي بيعه. وعندما إستعدت الألماسة ثم عدتُ فسلمتها له ثانيةً وأنا أقول: نفسي وألماستي تحت تصرفه. فقال رداً على ذلك أنه ممتنٌّ جداً للألماسة، ولكنه سيكون أكثر إمتناناً لو بقيت عنده. وسيعاملني بشكل مرضٍ الى آخر حدّ. وواصلنا حديثنا بكلّ تأدبٍ ثم عدنا الى قيمة الألماسة وسألني سموّه أن أسميّ بلا تردد المبلغ الذي أريده ثمناً لها. فقلت أن ثمنها يبلغ مائتي كراون بالضبط. فقال إنه ثمن معقول جداً. فما دمت أنا الذي قمت بتركيبها. وهو لايجهل بأني أبرع صائغ في العالم، فقد أفلحتُ في إظهار صفائها وكامل محاسنها. مالا يقوى عليه آخر. فأجبت في الواقع إني لست بالذي قام بتركيبها. وأن الشغل سيءٌ ومظهر الألماسة يعود إلى صفائها وجوهرها الطبيعي ولو أعدت تركيبها لزاد بريقها كثيراً. ثم إني أدخلت ظفر إبهامي المدبب في طرف حفر الخاتم وقلعت الألماسه وبعد أن فركتُها أعدتها الى نائب الملك فسرّ كثيراً وبانت عليه الدهشة. وبعدها كتب أمراً بدفع المائتي كراون التي طلبته ثمناً لها.

عدت الى الفندق لأجد بعض الرسائل من كردينال دي مديتشي يحثني فيها على العودة الى روما دون تأخير وأن أقصد حالاً منزل نيافته ولا أترجل إلاّ فيه. فقرأت الرسالة على مسامع أنجليكا فشرعت تبكي وتتوسل لي بدلال الحبّ أن أبقى في ناپُلي أو أن أحملها معي الى روما. فقلت إن قررت المجيء الى روما معي فسأعطيها الكراونات المائتين التي تسلمتُها من نائب الملك وبإمكانها أن تحفظّها لنفسها. ولمحتنا الأم نتشاور معاً فدنت منا لتقول:

(١٦٤) هو پيترو الفاريز دي توليدو ماركيز ڤيللاّ فرانكا. عُيّن في ١٥٣٢ وتوفى في ١٥٥٣.

- بنڤنوتو! إن كنت تنوى أخذ أنجليكا الى روما فأترك لي خمس عشرة دوقية كدفعةٍ لقاء حصولك على طفلتي. وبعدها سألحق بها أيضاً.

قلت للعجوز المحتالة إني سأدفع لها ثلاثين بكلّ سرور إن تخلّت لي عن (أنجليكا). ودفعت وتمت الصفقة. ثم طلبت (أنجليكا) أن ابتاع لها ثوباً من القطيفة السوداء حيث انه رخيص جداً في ناپُلي. فلبيت طلبها بكل سرور.أرسلت بطلبه ودفعت ثمنه. وعندها أرادت العجوز أن أشتري لها أشياء أخرى لإبنتها. ومبالغ أخرى أكثر بكثير مما دفعت لها. وهنا قلت إليها مبتسماً وقلت:

- (پياتريس) عزيزتي! أليس فيما أعطيت الكفاية؟

أجابت:

- كَلاّ.

فقلت:

- حسناً إذن. إن ماليس فيه الكفاية لك، هو كافٍ لي.

ثم قبلتُ (أنجليكا) وإفترقنا - هي تبكي وأنا أضحك. وسرت ووجهتي روما. تركت ناپُلي ليلاً ونقودي معي مصرورة في موضع خفي خشية أن أقع ضحية للعادة الناپُليتانية المأثورة فأُهاجم وأُقتل. وبالفعل فقد أضطرت الى خوض معركةٍ دفاعٍ حاذقة عن نفسي عند وصولي (سلچياتا Selciata) ضدّ عصابة من الفرسان قصدت قتلي. وبعد أيام قليلة لتركي (سولوسميو) لمباشرة عمله في (مونت كاسيّنو). وصلت (أنياني Anagni)[١٦٥] صباحاً فقررت أن أصيب شيئاً من الطعام في حانةٍ من حاناتها. وقبل وصولي وفقت الى صيد عدد من الطيور ببندقيتي. إلاّ ان نابض مغلاق البندقية ضرب كفيّ وأصابني بجرح بليغ الى حدٍ ما، لكنّه بدا خطيراً جداً لأن النزف كان شديداً. دخلت الحان ووضعت حصاني في الاسطبل وصعدت إلى الطابق الأعلى فوجدت في الباحة جمعاً كبيراً من وجهاء القوم الناپُليتان بينهم سيدة في مقتبل العمر ساحرة الصورة من أجمل ما وقع عليه نظري وهم جلوس يهمّون بالأكل.

صعدت وصعد في أعقابي خادمي الشاب الحسن السمت وبيده حربة ثقيلة في رأسها بلطة. فملكهم الرعب وصعقوا لأن المنطقة قد أشتهرت بأنها وكرٌ للقتلة والمجرمين وهاهم يرون رجلين مسلحّين وتلك الدماء النازفة. كل هذا جعلهم ينتفضون وقوفاً وهم يرتجفون خوفاً ويضرعون الى الله كي يخفّ الى نجدتهم. فأطلقت في الحال ضحكةً وقلت لهم أن الله قد إستجاب لهم فعلاً فقد أرسل رجلاً في مثل وزني ومعدني لأدفع عنهم غائلة أيّ مهاجم. ثم طلبت منهم مساعدتي في تضميد الجرح فأخرجت تلك السيدة الجميلة منديلاً مطرزاً بالذهب تطريزاً ثقيلاً. وهمّت بربط الجرح. فاعترضتُ على هذا إلاّ أنها بادرت بإندفاعٍ الى شقّه نصفين وراحت تشده على يدي برقّة ولطفٍ كبيرين بنفسها.

وهدأ بالهم نوعاً ما وتناولنا وجبة طعامنا في جوّ رائق ثم امتطينا خيولنا وانطلقنا معاً. إلاّ أن السادة الرجال لم يزايلهم الشك منيّ. فمهّدوا بدهاءٍ ومكر لأخلو بالسيدة الجميلة بحديث وإنسحبوا

(١٦٥) بليدة تقع على مسافة ستين كيلومتراً تقريباً جنوب شرق روما.

هم الى الخلف فواكبتها وأنا على صهوة جوادي الرشيق الصغير مشيراً في عين الوقت الى خادمي من طرف خفي بالإبتعاد عَنّا. وتبادلنا أحاديث ممتعة للغاية. ولم تكن تدور حول أشياء يمكنك شراؤها من السوق. ولهذا كانت سفرتي الى روما من أبدع ما قمت به من أسفار.

بلغت روما وترجلت في قصر الكردينال. وعندما لقيتُ نيافته أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فشكرته على مسعاه في عودتي. ثم رجوته في أن يحميني ويحول بيني وبين السجن وأن تفرض عليّ غرامة بدل ذلك وإن أمكن أن أُعفى. وكان عظيم السرور برؤيتي وطمأنني بألاّ شيء يدعو الى قلقي. ثم التفت الى أحد إتباعه وكان سيداً من أهالي (سيينا) يدعى (پيرانطونيو پيجي P. A. Pecci) وطلب منه أن يبلغ (البارجللو) نيابة عنه بالكفّ عن ملاحقتي. ثم سألته عن حالة الشخص الذي قذفته بالحجر. فأجاب إنه في حالٍ سيئة جداً وربما ستزداد سوءً اذا عَلِم بعودتي الى روما وقد أقسم يميناً بأن يموت على سبيل الإنتقام مني فحسب! فأنفجر الكردينال يقهقه لهذه الفكاهة وقال:

– بإمكانه أن يجد طريقةً أخرى ليؤكد لنا بأنه ولِد في سيينا.

ثم توجه اليّ وقال:

– لأجلي ولأجلك أصبر أربعة أيام أو خمسة. ولاتظهر نفسك في الضفة وبعد ذلك إذهب حيث شئت. وليمت الحمقى إن شاؤا.

عدت الى منزلي وإستأنفت العمل لإنجاز الميدالية التي كنت قد باشرتها. صوّرت رأس الپاپا كليمنت على الوجه مع صورة تمثّل السّلام[١٦٦] على الظهر، ورمزت للسّلام بأنثى ممشوقة القدّ عليها غلالة شفافّة وبيدها مشعل توقد به النار في مجموعة من الأسلحة المكدّسة كما أظهرت في خلفية الصورة حائط هيكلٍ وثني يجلس فيه (فيورى) إله النار وهو مثقل بالسلاسل ونقشت حول الصورة عبارة Clauduntur belli Portea.

وفي خلال إنشغالي بالميداليّة عوفي الرجل الذي ضربتُه. وكان الپاپا لايفتأ يسأل عنيّ. في عين الوقت تحاشيت الإختلاف الى قصر الكردينال دي مديتشي لأن نيافته كان يعهد اليّ في كلّ زيارة بعملٍ هام فيعيقني عن إكمال الميدالية. على أن السيد (پيير كارنيسيكيّ Pier Carnesecchi)[١٦٧] أحد أصفياء قداسته المقربين وكان قد أُمر من لدنه بأن يتفقدني – قال لي بكثير من اللباقة أن الپاپا شديد الرغبة في خدماتي. فأجبته على هذا بأني في غضون أيام قلائل سأثبت لقداسته بأني ماتركت خدمته قط.

بعد بضعة أيام أخرى أكملت الميدالية وسككت ثلاث قطع واحدة ذهبية والثانية فضية والثالثة نحاسيّة، وعرضت السكّة على (پيير) المذكور فأخذني الى الپاپا في الحال. كان الوقت بعد الغداء في

(١٦٦) الغرض من هذه الميدالية هو إحياء لذكرى السلام الذي دام ستّ سنوات (١٥٣٠-١٥٣٦).

(١٦٧) امين سرّ كليمنت السابع. مواطن فلورنسي وأديب كبير كانت له صلة بالعالمين المفكرين ڤالديز Valdez في نابُلي وميلانكثون Melanethon في فرنسا. وتأثرت أراؤه بهما كثيراً. أتُهم بالزندقة وقطع رأسه وأحرقت جثته في روما ١٥٦٧.

يوم جميل من أيام نيسان وكان البابا في البلڤديري. وعندما مثلت بين يديّ قداسته أسرعت فسلّمته الميداليات مع قالبها فأخذها منيّ وكانت لمحة واحدة منه كافية لإقناعه بالمهارة والدقة التي تجلّت في صناعتها فنظر الى (پيترو) مليّاً وقال:

– لم يحظَ العالم القديم بميداليات كهذه.

وفيما كان هو والآخرون يقلّبون الميداليات مرة والقالب مرّةً قلت بكلّ تواضع وأدب:

– لو لم تبدّل قوةٌ عليا من سوء حظوظي فتحول بيني وبين البلايا التي يهددني بها نكد طالعي لكان قداستك سيخسر خادماً محبّاً مخلصاً لا بسبب خطأ إرتكبه أحدنا. لذا فأنا أرى أيها الأب الكلّي القدّاسة أنه لايمكن أن يرتكب خطأ عندما يلعب المرء ورقته الأخيرة – إذا ما تريث على حَدّ قول البسطاء فعدّ من الواحد الى السبعة قبل أن يقطع الورق مرّةً واحدة. إن لسان الدّ أعدائي الكاذب القذر قد أفلح في إثارة قداستك بسهولة حتى إنك أمرت الحاكم بالقبض عليّ وشنقي فوراً. إلاّ أن قداستك سرعان ماتبين كم كان ظالماً بحقي وكيف إنه كان سيحرم نفسه من خادم مخلص بالوزن الذي ذكرته أنت فيلحق بنفسه الضرر الفادح. إني لواثق بأنك كنت ستشعر ببعض الندم أمام الله والبشر، المخدومون الصالحون وهم مثل الآباء الصالحين يجب عليهم أن لايدعوا أيديهم تهوي بقسوةٍ وتهوّر على رؤوس خدمهم وأبنائهم لأن أسفهم لن يجديهم نفعاً بعد أن ينفذ الأمر. وبما أن الله أحبط عمل سوء حظي ونجّاني من أجل قداستك. فأرجو أن لايُستثار غضبك عليّ بمثل هذه السهولة في المرّة القادمة.

كان البابا قد توقف عن النظر في الميداليات وأرهف أذنه الى أقوالي. ولما كان في مجلسه عددٌ من الإشراف وعليه القوم فقد إحمرّ وجهه قليلاً وبدأ عليه الخجل. ولما لم يجد لنفسه مخرجاً من إضطرابه فقد قال إنه لايتذكر إصداره أمراً كهذا مطلقاً. وعندما أدركت حراجة موقفه سارعت بإدارة دفّة الحديث الى أمور أخرى لإنقاذه من حيرته.

ثم طفق قداسته يتحدث حول الميداليات وسألني بعد أن إستهول حجمها كيف وفقت الى سكّها بهذه الدقّة والاتقان إذ انه لم يجد بين الميداليات العتيقة ما يوازيها حجماً. وتجاذبنا أطراف الحديث حول الموضوع بعض الوقت. ولمّا كان يخشى أن ألقي عليه خطبةً أخرى أقسى من الأولى، قال لي إن الميدالية في غاية الجمال وقد سُرّ بها كثيراً لكنه يستحسن أن يكون لها ظهرٌ آخر بحسب ذوقه، هذا إذا كان الإستبدال ممكناً. فلما أجبتُ بالإيجاب إقترح قداسته أن أصوّر له موسى الكليم وهو يضرب الصخرة فينبجس منها الماء مع هذه العبارة (Ut bilat populus[١٦٨] = ليقرّب من أجل الشعب). وأضاف يقول:

– إنصرف الآن يا بنڤنوتو. وقبل أن تنتهي منها سوف أكفيكَ كلّ حاجاتك.

بعد أن غادرته بدأ يفخر أمام الجميع بأنه سيكون كريماً جداً في عطائه بحيث سيضمن لي عيشة

(١٦٨) قصد بها تخليد ذكرى بئر فجرّه بنفسه في أورڤييتو (١٥٢٨). وقد عمل الجزء التذكاري أنطونيو دا سان گالّو. والقالب مازال محفوظاً في دائرة الوثائق البابَاوية (الأوفيزي).

مترفةً ولايحوجني الى أن أشتغل لغيره. وإنصرفت الى إكمال ظهر الميدالية مخصصاً لها كلّ وقتي.

بعد هذا اللقاء إعتلّ البابا وقررّ أطباؤه بأنه مقضيّ عليه على أغلب الإحتمال. وأدرك الخوفّ عدوّي مما يمكن أن يحصل فاستأجر مواطناً ناپُليّاً ليفعل بي ماكان يتوقع أن أفعل به. فأضطررت الى الدفاع عن حياتي البائسة إلاّ أني مع هذا اكملت ظهر الميدالية ،اخذتها الى البابا فوجدته طريح الفراش وحالته تنذر بالخطر، إلاّ أنه إستقبلني بحرارة وشوق ورغب في القاء نظرة على الميدالية والقالب وأمر بجلب نظارتيه مع عدد من الشموع إلاّ أنه عجز عن رؤية أي شيء منها. فراح يتقرّاها بلمس أصابعه وجهاً لظهر وظهراً لوجه مدة ليست بالقليلة ثم أطلق زفرة عميقة وقال انه شديد القلق عليّ ولومدّ الله في عمره وأعاد عافيته إليه فسيسّوي الأمور كلها.

بعد هذا بثلاثة أيام لفظ البابا إنفاسه الأخيرة[١٦٩] فضاعت كلّ جهودي. إلاّ انيّ شددت من عزمي وعزّيت النفس بقولي: بفضل هذه الميداليات ذاع صيتي وإشتهر أمري ولن يتردّد البابا التالي في إستخدامي وربما كانت مكافأتي أكثر. وبهذا الشكل تجلدّتُ، ونفضت عن رأسي كلّ الإهانات التي تلقيتها من (پومپيو) ثم لبست زردي وتمنطقت بسيفي وتوجهت الى كاتدرائية الرسول بطرس حيث قبلت قدمي البابا الراحل دون أن أذرف دموعاً. وبعدها عدت الى الضفة لأرقب الفوضى التي تعّم عادة في مثل هذه المناسبات. وبينما كنت جالساً مع لفيف من الأصدقاء أتفق أن مَرّ (پومپيو) وكان محاطاً بعشرة رجالٍ مدججين بالسلاح وعندما صار مقابلي توقفّ وأتى بما يشعُر منه أنه يريد إثارة شجارٍ.

وكان من معي من الأصدقاء شباناً ذوي إقدام وإندفاع. فأشاروا عليّ بإمتشاق سيفي إلاّ اني فكرت بأن عملي هذا قد يصيب أناساً لادخل لهم في القضية بضررٍ فادحٍ ولذلك قررت أن الأفضل هو المخاطرة بحياتي فقط. وبعد أن تسكع (پومپيو) فترةً من الوقت لاتزيد عن تلاوة صلاة العذراء مرتين[١٧٠] ضحك ضحكة ساخرة وهو ينظر الى ناحيتي وشاركه الجميع فيها. ثم مضوا لطيتهم وهم يشيرون اليّ بأصابعهم ويستفزوني بغمزاتهم ولمزاتهم الوقحة.

أرادني أصدقائي أن أخوض معركة مع هؤلاء. فأجبت ببعض إنفعالٍ اني لأخبر بكيفية الثأر لنفسي وإني قادر على القتال وحدي. ولادخل لهم في المسألة فأغاظهم قولي وتركوني ساخطين وكان بينهم أعز صديق لي وهو (البرتاچيو دل بيني Albertaccio del Bene) ماعرفت شخصاً في مثل حلاوة شمائله ولا أشجع منه. وكان يحبنيّ حبّه لنفسه وهو أخ لكلّ من (الساندرو) و(البييزّو Albiezzo) من أغنى أغنياء ليون في وقتنا هذا.

أدرك أن الموقف الذي إتخذته وسكوتي عن الإهانة ليس مبعثه الجبن بل هو نتيجة للجرأة الفائقة، ذلك لأنه كان أعرف الناس بأخلاقي. ففهم ماقصدته بأقوالي ورجا منيّ أن أسمح له بالمساهمة فيما أنا مزمع ومصمم إلاّ اني أجبته:

(١٦٩) كانت وفاته في الخامس والعشرين من أيلول ١٥٣٤.

(١٧٠) حوالي دقيقتين.

– عزيزي البرتاچيو. اني لأعزّك أكثر من الباقين. ولاشك إن الوقت سيأتي حين يمكنك أن تساعدني. ولكن دعني لوحدي في هذه القضية وإنصرف لشأنك أن كنت تبادلني المودّة حقاً. أسرع وأترك هذا المكان كالآخرين فليس هناك وقت أضيّعه.

قلت هذا وفارقته.

في تلك الأثناء إتجهت عصابة الأعداء ببطء نحو مايسمّونه بـ(كياڤيكا Chiavica) حتى وصلوا الى نقطة تقاطع طريقين، وكانت الطرق تؤدي الى مختلف الإتجاهات. إلاّ أن الشارع الذي يقع فيه منزل (پومپيو) كان يؤدي رأساً الى (كامپودي فيوري) ولسببٍ مادخل (پومپيو) دكان صيدلي في ركن (كياڤيكا) وبقي برهة هناك لقضاء حاجةٍ.

وقيل لي إنه راح يفخر بالعمل الجريء الذي تحدّاني به كما يظنّ. وفي كل الأحوال إنقلب الأمر عليه وكان هو المُبتلى، إذ ما أن وصلت المنعطف حتى خرج من دكان الصيدلي فأفسح له أشقياؤه السبيل ثم أحاطوه ووضعوه بينهم.

إستللت خنجري الصغير الشديد المضاء وإقتحمت عليه الطوق من الرجال ووضعت يدي بكلّ برودٍ وبسرعةٍ على صدره بحيث عجز سائرهم عن صدّي ووجهت طعنتي الى وجهه لكنه لوى رأسه بدافع الخوف العظيم وغاب نصل خنجري تحت أذنه تماماً. ثم عقبتها بطعنتين أخريين فقط إلاّ أنه كان ميتاً في الثانية. ولم يكن هذا قصدي. لكن المثل السائر هو "لاسوم في الطعان. والحرب لاتعرف قاعدة". سحبت الخنجر من جسمه بيدي اليُسرى وجردّت سيفي باليمنى لأدفع عن نفسي إلاّ أن هؤلاء الأشقياء تحوطوا الجثة الهامدة ولم تبدر من أي واحد منهم بادرة التقدم. فدرت على إعقابي سالكاً (ستراداد يوليا Strada Julia) أقلبّ وجوه الرأي في آمن مخبأٍ. سرت حوالي ثلاثمائة خطوة. فالتقاني صديقي العزيز (پيلوتو Piloto) الصائغ وقال:

– أي صديقي، بعد أن وقع المقدور علينا أن نفكر بسلامتك.

قلت:

– فلنذهب الى منزل (البرتاچيو) فقبل فترة قصيرة كنت قد قلت له: لا البث أن آتيك ناشداً عونك.

وبوصولنا المنزل وجدنا ترحيباً حماسيّاً ينتظرنا وما هي غمضة عين إلاّ وأجتمع لدينا كل نخبة الشباب من الضفة بإستثناء الميلانيين وعرضوا جميعاً حياتهم فداءً لي. وأرسل السيد (لويچي روچليّا Luige Rucellia) بكرمه المعهود يعرض تقديم كلّ ما أحتاج إليه وحذا حذوه عدد كبير من الأكارم أمثاله. ثم أنهم باركوا في يديّ قائلين إن (پومپيو) خرج عن كل الحدود في إهانتي وكان عجبهم أني صبرت عليه هذه المدة.

وسمع الكردينال (كورنارو Cornaro)[١٧١] بالحادث فبادر من تلقاء نفسه بإرسال ثلاثين جندياً مدججاً بالسلاح وبكثير من حملة البنادق والحراب لنقلي الى قصره بكلّ مظاهر الإحترام. فوافقت وإتجهت إليه بخفارة الجنود وعددٍ يفوقهم من الشباب أصدقائي. وفي عين الوقت كان النبيل

(١٧١) فرانشسكو كورنارو هو أخ ماركو كورنارو الذي مرّ ذكره في أول المذكرات.

(ترايانو) كبير أمناء السرّ في البلاط الپاپوي ومن أقرباء القتيل، قد أرسل نبيلاً رومانياً عالي المقام الى الكردينال دي مديتشي يبلغه بالجريمة الكبرى التي إرتكبتُها ويقول أن نيافتة مكلّف بعقابي. فكان جواب الكردينال قوله له:

– كان سيرتكب جريمة كبيرة لو لم يرتكب هذه الجريمة الصغيرة. أشكر عنيّ السيد ترايانو لإبلاغي بشيء لا علم لي به.

ثم التفت الكردينال – والنبيل الروماني حاضر – الى أسقف فورلي Forli(*) أحد إتباعه المقربين وقال:

– أبحث بحثاً دقيقاً عن بنڤنوتو وجئني به لأني أنوي مساعدته وحمايته – وكل من يتدخل في شؤونه يتدخل في شؤوني. ومن يضاره يضارّني.

إحمرّ وجه الميلاني إنفعالاً وإنصرف ثم جاء أسقف فورلي ليجدني مع الكردينال كورنارو وأخبره بأن الكردينال دي مديتشي أرسله بطلب (بنڤنوتو) لأنه يريد أن يكون هو مجيره وحاميه. وكان الكردينال كورنارو من أولئك السريعي الإنفعال فإنتفض إنتفاضة الدبّ الغاضب وردّ قائلاً أنه قادر على حمايتي كالكردينال مديتشي. فرجاه الأسقف أن يكلمني على حدة في أمر لا علاقة له بالموضوع خاص بأعمال الكردينال مديتشي. فرده عليه الكردينال كورنارو قائلاً. بقدر ما يتعلق الأمر بهذا اليوم فليحسب نفسه انه تكلم معي. فسخط الكردينال مديتشي وإستبد به الغضب. إلاّ اني زرته في الليلة التالية دون علمٍ من مضيفي بحراسة لايُستهان بها وتوسلت به أن يتلطف ويدعني أبقى في ضيافة كردينال كورنارو وحدثته عن حسن ضيافته والعطف الذي شملني به وقلت لو سمح لي نيافته بالبقاء عند كورنارو فسيكون لدي صديق آخر يدعمني وقت الشدّة. ومهما يكن من أمر فإن نيافته صاحب الأمر وما عليّ إلاّ الطاعة. فقال إفعل ماتجده مفيداً لك. فعدت الى قصر كورنارو. وبعد أيام قليلة إعتلى كردينال فارنيزي عرش الپاپاوية(١٧٢).

بعد أن قام الپاپا الجديد بتصريف الأمور الهامة أرسل بطلبي. وقال إنه لايريد أحداً غيري يتولى ضرب نقوده وتصميمها. وكان ذلك بمحضر من نبيل يدعى (لاتينو چوڤينالي Latino Juvinole)(١٧٣) وثيق الصلة بالپاپا فقال له إني مختف بسبب قضية قتل إرتكبتها بحق مواطن ميلانيّ يدعى (پومپيو) ثم بسط جميع الأسباب والمبررات التي يراها لمعذرتي. فردّ الپاپا بقوله:

– لا علم لي بموت (پومپيو) إلاّ اني أقدر معاذير بنڤنوتو وكلها تبرر تصرفه ولذلك صدّر له (كتاب أمان) ليكون مصوناً من أي تعقيب.

كان بين الحاضرين ميلانيّ يدعى (مسّر أمبروجيو Messer Ambrggio) وهو من أصدقاء (پومپيو) ومن المقربين الى الپاپا، فتدخل بقوله:

(*) مدينة تقع على مسافة مائة كيلومتراً تقريباً شمال شرق فلورنسا وثلاثين كيلومتراً جنوب غرب راڤينا.

(١٧٢) ألساندرو فارنيزي: إتخذ له أسم پولس الثالث وأنتخب في ١٣ تشرين الأول من العام ١٥٣٤.

(١٧٣) ويعرف أيضاً بإسم جيوڤاني رامانيتي. كان شاعراً وأديباً مثقفاً عرف بعلاقته الوثيقة مع الأديب (بمبوكاسيتالوني) وغيره من متأدبي العصر.